محمد الحليوي

مباحث

ودراسات أدبية

الشركة التونسية للتوزيع

تأليف محمد الحليوي

مباحث ودراسات أدبية

نشر
الشركة التونسية للتوزيع

تقـديم

لما فتحت مخطوطة هذا الكتاب ووقع نظري على خطها الجميل تراءت لعيني صورة الأستاذ محمد الحليوي وهو يتجول بين المقاعد مستعيدا ذكرياته عن أعلام الأدب العربي المعاصر، أو ممليا علينا تحليلا مرتجلا لرائعة من روائع إيليا أبي ماضي، أو جبران خليل جبران. ولما أنهيت قراءتها أحسست بما كنت أحس به من الحسرة حين ينفض مجلسنا بالقيروان على ملحة طريفة أو بيت رائق يسوقه الحليوي من ذاكرته العجيبة، فنفترق في آخر العشي ونحن مشتاقون إلى لقاء جديد، أو على الأصح إلى مجلس أدبي من تلك المجالس التي ألفتها القيروان في كل حقبة من تاريخها.

والذين عرفوا محمد الحليوي أستاذا أصابتهم منه عدوى الأدب. فأي من تلاميذه لم يكن على علم — وهو في بداية المرحلة الثانوية — بأدق ما يجري في الحياة الأدبية بتونس والمشرق، وأي منهم لم يقرأ أحدث ما كتب أعلام الفكر، ولم يسمع فقرات من رسائلهم أحيانا؟. وقد لازمت الحليوى بعد هذا العهد، فاكتشفت فيه رجلا يعيش حياة للناس فيها كثير من القناعة والدعة والمجاملة، وحياة لنفسه تصله بكبار المفكرين في تأملاتهم، وتكلفه من الحيرة أمرها وأقساها. فكنت أخلو إليه في عالمه الثاني وأعرف من أمره ما لا يعرف الناس. رأيت أن الحليوي آثر غربة الفكر على غربة الروح فغمس جذوره في تربة المدينة التي أحبها وعاشرها ثلاثة عشر قرنا يستقرىء تاريخها ويستنطق مآذنها وأسوارها ويدون أخبارها، فكان حلقة ضرورية من سلسلة لم تنقطع أسانيدها منذ ألقى عقبة بن نافع رحاله في تلك الأرض واتخذها قيروانا. لقد دالت دولة الأغالبة وصنهاجة، ولكن دولة النهشلي والحصري وابن رشيق كانت أعمق جذورا وأحكم بناء من رقادة والمنصورية. رابط الحليوي بالقيروان، وعمل على بقاء السنة الأدبية فالتزم — قبل أن يصبح الالتزام مذهبا من مذاهب الأدب — فلا عجب أن تصبح معاشرة الكتب أحب إليه من معاشرة الناس، وأن يكون المعري نجيه في خلواته وصفيه في أزماته، فهو لا يتطلب من الشعر أكثر من أن يكون «شفاء الأتراح وبلسم الجراح». وإذا كان من السهل أن نتبين

النزعة الانطباعية في الفصول النقدية فإن المؤلف يأبى رغم ذلك أن يفرق بين العقل والقلب ، وبين الشاعر الفيلسوف والشاعر الوجداني .

ومما يلفت النظر في هذا الكتاب أن صاحبه تخلص من أخطر العقد الأدبية التي عاني منها بعض أبناء جيله . تخلص من عقدتي المعاصرة والمواطنة فتحدث عن الشبان التونسيين، ومن القداسة الموروثة والشهرة الجغرافية فلم يفضل قديما على جديد لقدمه ولا مشرقيا على مغربي لمشرقيته ، فهو أحد أولئك الشبان الثلاثة – إلى جانب البشروش والشابي – الذين آمنوا برسالتهم في بعث الأدب التونسي وفتحوا السبيل للجيل الجديد . إنه يؤمن بالشعر ولا يخاف عليه الموت في عصر العلم لأن الشعر يعيش مع الناس في كل مظاهر الحياة اليومية ، إلا أن الشاعر حين لا ينتقي كلماته كالجواهري و نزار قباني، ولا يكثف صوره كالشابي وأبي ماضي، يصبح كلامه نوعا من اليوميات المنظومة التي يكتبها أبو شادي . وللحليوى « ذكاء » أدبي لا يملكه إلا القليل من نقاد العصر ، به يفهم المؤثرات الخفية وينفذ إلى أسرار الشهرة والخمول ، إنه يلخص كل حياة شوقي الأدبية بهذا القول :

(لم تكن لشوقي عواطف إلا ما يستوحيه من الأزمات السياسية والأحداث الهامة ، ولم تكن له ميول إلا ما يميل إليه الرأي العام ويتطلبه زعماء السياسة ، ولم يكن يبغض أو يحب إلا ما يبغضه المجتمع العصري أو يحبه . فهو يغني للشعب ما يشاء من النغمات كما كان يغني للخديوي ما يشاء من النغمات ، وهذا يفسر لنا بعض الشيء عجب الناس من أنه لم يأت بعد شوقي من يخلفه أو يقوم مقامه وما دروا أن الشعراء بعد شوقي قد أبوا فيما يخيل إلي أن يكونوا الآلة التي يوقع عليها غيرهم ما يشاء من الألحان وأن شوقي كان آخر من يمثل هاته النزعة « الغيرية » في الشعر وهو على عتبة دخوله إلى النزعة الرومانسية) – بهذا الذكاء الأدبي أيضا يفسر تطور ذوق العصر ويدرك أن حافظ إبراهيم (أصبح بعيدا عنا) وأن نعي أبي ماضي (لم يثر إلا أصداء خافتة) .

ومن أهم ما يذكره تاريخ الأدب التونسي المعاصر للحليوى أنه حمل لواء الترجمة في فترة لم يكن رجال القلم يطيرون فيها إلا بجناح واحد كما قال صديقه أبو القاسم .

وسيبين النقد أن أثر الحليوى في الشابي كان كبيرا بقدر ما كانت شهرة الشابي جانية عليه .

لقد غطى نشاطه الأدبي ما يقرب من نصف القرن ، واكب فيه كل التيارات فانعكست مشاغل العصر في مقالاته ومسامراته التي تؤكد انتماءه الحضاري المجسم في حبه للقيـــروان.

وما حنينه إلى أرض الحجاز وتأملاته في السيرة النبوية إلا أصداء صادقة لتلك التأثيرات التي تلقاها في مناخه الثقافي بالفطرة والمطالعة ، وكم مرة سمعته يقص خبرا من حياة الرسول وعيناه مغرورقتان بالدموع من شدة التأثر . على أن أبغض الأشياء إليه هو الجمود خاصة حين يتخذ العقيدة أرضية ينسج عليها خيالات واهية تشل المجتمع وتعطل الفكر ، فلا يتردد في مخالفة (الرأي العام) ويصارحه بأن لكل تفكيره وفهمه . والحق أن كل ما كتب الحليوى ينبع من عقيدة راسخة فيه تتعدى مجال الدين إلى كل المساحة التي يتحرك فيها الإنسان بقلمه وعقله وهي حرية الفكر . ولا شك أنه يحس أكثر من غيره — وهو القيرواني المنبت والاقامة — بقوة هذا الرقيب الجديد ، الجمهور ، الذي يفوق بطشه أحيانا بطش الخليفة والوزير ، قال لصاحبه :

(كان الخليفة أو الوزير يقتل على السياسة . أما اليوم فالجمهور هو الخليفة والوزير هو الذي يقتل على حرية الفكر أشد القتل وينكل بالمفكر الحر أشد التنكيل ولقد رأينا قوة هذا الجمهور في الشرق وعرفنا قوته وشدة بطشه ، فلقد كان يقتل شاعرا كالزهاوي وعالما كعلي عبد الرزاق وأديبا كطه حسين ، أما في تونس فقد قتل كمدا كاتبا كان يحلم بتحرير المرأة وشاعرا أراد أن يحرر الشعب العربي).

هذا هو الحليوى الذي أعطى — بالجمع بين وظيفته التربوية وحياته القلمية — لمفهوم الأدب كل أبعاده ، وغذى أحيانا بخير ما في الأصالة والتفتح من القيم الثابتة ، وآطرح من الثقافة الموروثة ما فيها من المتحول الفاني ، وإذا لم يقدر لهُ أن يكون في تونس أشعر من العقاد في مصر مثلا ، فإن حسه الشعري جعله في مقدمة النقاد الذين سيبقى أثرهم واضحا في الأدب التونسي المعاصر .

وما هذا الكتاب الجديد إلا سجل حافل بمشاغلنا الفكريه طيلة أربعين عاما ، ترى فيه الحليوى الناقد والأديب والمفكر والمربي تمتد يده إلى كل خزائن المعرفة مقتنية منها أنضج الثمار وأنفس الأفكار ، وأنت مضطر أحيانا إلى أن تفهم إشاراته المكثفة دون الاستعانة بإحالة أو مرجع ولكنك تستريح رغم ذلك كله ، ولأجل ذلك كله ، في ظلال هذا الأسلوب الطلي الناعم ، الذي تتحرك فيه الكلمة كالورقة الحية في الدوحة الوارفة ، فلا تنس أن الأدب الذي بين يديك يتطلب منك يقظة مستمرة وقدرة على الهضم السريع .

جعفر ماجد
أستاذ الأدب العربي بالجامعة التونسية
تونس في 8 ماي 1975

مقدمة

كانت هذه الدراسات والفصول مشتتة في مختلف الصحف والمجلات الصادرة منذ الثلاثينات إلى اليوم، ومهددة بالضياع والتلاشي.

وليس الذنب ذنب الكاتب الحريص على جمع ما تشتت من إنتاجه، وإن مضى بعض الوقت على نشره، بل الذنب ذنب انعدام وسائل النشر في الماضي وتخلفه، رغم معالجته والدعوة إلى تلافيه في مناسبات عديدة.

والحقيقة أنه لم يكن بوسع الكاتب أن يفكر في إنتاج الجديد، أو الاستمرار على الكتابة، أو تأليف الكتب ذات الموضوع الموحد ما دام الإنتاج الذي أنفق فيه جهودا وأوقات عديدة مهددا بالضياع مع الصحف التي نشر فيها.

لماذا يكتب الكاتب، ويكد فكره، ويبحث ويطالع، إذا كان مآل ما يكتبه التلاشي والضياع في بطون الصحف والمجلات، كما وقع ذلك بالنسبة للكثيرين الذين لم تمكنهم الظروف، ولم تتح لهم الفرصة لجمع نتاجهم المبعثر، مما أصبحنا نحاول اليوم - في عهد الاستقلال - أن نقوم به مخلصين حتى نتدارك بعض ما فاتنا في السنين الماضية.

وإذا كان كاتب هذه الفصول معدودا من أدباء جيل النهضة الأدبية في الثلث الأول من هذا القرن، فمن المفيد لتأريخ هذه النهضة أن تنشر آثاره وتعرف أفكاره في كل القضايا التي كانت تشغل بال أدباء تلك الفترة إلى الوقت الحاضر - وهذا ما دعا إلى جمعها ونشرها - فهي زيادة على اشتمالها على حصيلة تجارب الكاتب وتفكيره وتفاعله مع أحـداث

عصره، شهادة على مشاغل الأديب التونسي حقبة طويلة من الزمن.

من الاستعارات الصادقة قولهم في آثار الكاتب هي بنات أفكاره ـ فأفكار الكاتب مثل بناته وحرصه على حياتها وحفظها من الضياع حرص مشروع.

وهذه الدراسات والفصول هي ـ على كل حال ـ أدب نضال في أغلب الموضوعات، وأدب توجيه وفيها نوع من الالتزام قبل أن يصبح الالتزام مذهباً من مذاهب الادب.

ومهما يكن من الامر، فإن هذا الكتاب لا يعدم من يهتمّ به من الدارسين والناشئة المتأدبة المحتاجة لأمثاله، لانه يتناول الحديث عن شخصيات وموضوعات تدخل في مقومات ثقافتهـا.

القيروان في مارس 1972

م. ح.

نظرة في أدب المعرّي وفلسفته

لو سئلت عن أحب شعراء العربية لقلبي، وأخفّهم على نفسي، وأعلقهم بروحي لأجبت بدون تردّد: هو أبو العلاء المعري. فلقد صحبته دهرا في شرخ الشباب فلازمني في السراء والضراء، وشركني في النعماء والبأساء – ولطالما فزعت إليه حين يشكل الأمر، وتلتوي الطريق، وحين تظلم جوانب النفس، وتستولي على الروح السآمة واللغوب، وحين تعصف عواصف الحياة، وتترادف المصائب وتتعاقب النوائب فإذا فيه التسلية والعزاء، وإذا فيه العصمة والنجاء، وإذا هو في رأس الجادة يدل على الطريق اللاحب ويرشد إلى المحجة القويمة.

وإني لأفتح ديوانه ونفسي مثقلة بالهمّ، ومفعمة بالأسى، رازحة تحت أوقار الحياة فإذا فيه شفاء الأتراح، وبلسم الجراح، وإذا هو خير عزاء وأكبر سلوى، وأعظم مطهّر يرتفع بالنفس ويدفعها إلى متابعة الجهاد والجلاد! .

هل بهظتني الحياة وتكاءدني عبؤها قرأت قول حكيم المعرة :

« تعب كلها الحياة .... »

هل كرّه الناس إليّ العيش، ونالوني بأذاتهم وشرهم. ردّدت قوله :

هل يغسل الناسَ عن وجه الثرى مطرٌ
فما بَقَوْا لم يبارح وجهَه دَنَسُ
والأرضُ ليس بمرجوّ طهارتُها
إلا إذا زال عن آفاقها الأَنَسُ

هل خذلني من جعلته ناصرا ومعيناً، وآذاني مَن اتخذته صاحبا وخدينا... تعللت بقوله :

يحسن مرأى لبني آدم وكلّهم في الذوق لا يَعْذُبُ
ما فيهمُ برٌّ ولا ناسك إلا إلى نفع له يجلب

هل رأيت دهري يتنكر لي فيرفع من كان أولى به النزول، ويقدِّم من كان يرضى من عيشه بالخمول، همس الشيخ في أذني :

لا تطلبنَّ بآلة لك رتبة قلمُ البليغ بدون جِدٍّ مغزلُ

هل يُسيء إليَّ صديق كنت أحمل له من الود أصفاه، ومن الحب أنقاه :

متى يُصرمِ الخلُّ المسيء فلا تُرعْ فأفضلُ من وصل اللئيم قلاه

هل سهرتُ الليل والناس نائمون، أو في مباهج نفوسهم ينعمون :

أترغب في الصيت بين الأنام وكم خمل النابه الصّيت
وحسب الفتى أنه مائت وهل يعرف الشرفَ الميِّت

هل رغبت في مخالطة الناس ومزاحمتهم فيما يتزاحمون عليه فرجعت بالخيبة والحرمان :

اجتنب الناس وعش واحدا لا تظلم الناس ولا تظلم

وهكذا كلما أظلمت الدنيا أمامي، وكلما أحسست بالوحشة والغربة والفراغ فزعت إلى شيخ المعرة فيسلّيني أو يرفعني عن حقارات العالم المادي إلى أجواء رفيعة تصغر عندها هاته الدنيا الواقعية بما فيها من مشاكل ومهازل، وبما تشتمل عليه من متاعب ومصاعب.

وهل يُطلب من الشعر أكثر من هذا؟ - وهل يتاح لكل شاعر أن يرتفع بقارئه إلى عوالم فسيحة تسود فيها الفكرة، وتسيطر الروحيات ويملؤها الجمال والجلال؟

على أن هذا الاختيار ربما ينكره بعض الناس ويتهمون ذوق صاحبه في فهم الشعر وتقديره لأن الشعر الحقيقي الخالص يجب أن لا يلتمس

عند المعري. فشيخ المعرة عند هؤلاء حكيم وليس بشاعر. والشعر الأصيل الخالص هو شعر الوجدان وأداة الشاعر الحقيقي هي الخيال والعاطفة. والمعري رجل يتعلق بالحقيقة ويستخدم العقل، ويضع البشرية بعقائدها وعوائدها على مائدة التشريح. وأين هذا من الشعر؟ الشعر الذي تقرؤه فيلهب في نفسك النار المقدسة الكامنة بين الجوانح فتصير شعلة تتقد بالعواطف والأحاسيس، أو يهب كيانك أجنحة سحرية من أجنحة الخيال تطير بك إلى عوالم عجيبة، وآفاق رحيبة تنسيك لحظة ضيق عالمك المحدود، وقيودك العادية الجامدة. وليس شيخ المعرة بذلك الذي يُؤجّج مشاعرك أو يطير بك في أجواء الخيال، وإنما هو يُقدّم لك حكمة رصينة وحقيقة مجردة، وتجربة مرة، وفلسفة مُصفّاة في لفظ كزٍّ وعبارة صارمة، وأسلوب عاطل عن الصور الشعرية والمجازات الوهاجة الخلابة. فالشعر بمعناه الأتم الشامل ينبغي أن يلتمس في غير اللزوميات وفي غير دواوين أبي العلاء.

وأجيب هذا المنكر. إذا كانت غاية الشعر هي التعبير الجميل عن الشعور الصادق فمن اللغو ما يقال في التفريق بين الشاعر الفيلسوف والشاعر الوجداني. على أن أبا العلاء – وإن غلب عليه لقب الشاعر الفيلسوف – إلا أنه يجب أن يسلك في أصحاب العاطفة. فكل شيء في حياة أبي العلاء يدل على أنه شاعر تقوده العاطفة ويستولي عليه الوجدان – فهو لم يرغب في مال، ولم يسع إلى جاه ولم يطلب لذة أو تنعماً بل إنما عاش لفكره واختار أن يكون رهن المحبسين ليحفظ لهذا الفكر حرية مطلقة لا يضائقها قيد ولا يحدها شرط – وهو رجل لم تكن له في حياته حوادث وأعمال، ولكنّ حياته الفكرية كانت مليئة بالمغامرات والمطوّحات. فلقد طاف كل العوالم، واختبر كل الآراء، واطلع على كل المذاهب. وقد عاش عمرا طويلا ولم يتزود من أطائب الدنيا إلا بلذة التأمل والاطلاع. ولم يطلب لنفسه من الحاجات إلا حرية النظر والتفكير.

«وأبو العلاء هو أول من أدخل الأحلام إلى الأدب العربي، فرسالة الغفران حُلْم، وشعره الكثير حلم واسع الأطراف يبدأ فجره في سقط الزند وينتهي غروبه الزاهي في اللزوميات»(1).

نعم هو حلم أزيحت عنه الحواجز المادية وذُلِّلت فيه العقبات، وسادت فيه الارادة التي أبدعته سيادة مطلقة صار فيها الغريب جائزا، والشاذ عادياً، والمستحيل قريب المنال - حلم طفت فيه المشاعر والرؤى، والصور والأخيلة، وكَوْنٌ شيده صاحبه من الخيال ثم سكن فيه وخضع لنواميسه وصار بمحض اختياره من محابيسه.

أما الصور الشعرية فقد يتفق له منها ما لا يتفق لغيره، وما يعز نظيره عند معظم الشعراء الفحول. وقصيدته التي يقول فيها :

ليلتي هذه عروس من الزِّنْـ ـج عليها قلائد من جمان

والتي من أبياتها قوله :

وسهيل كوجنة الحبِّ في اللـ ـون وقلب المحبِّ في الخفقان.

يسرع اللَّمع في احمرار كما تسرع في اللمع مقلة الغضبان.

ضرَّجته دما سيوف الأعادي فبكت رحمة له الشعريان

هذه القصيدة هي من أصدق الأدلة على براعته وقدرته على الاتيان بالصور الشعرية متى تعلقت إرادته بذلك، فحياة الرجل وكونه الذي أنشأه وعمَّره بالآراء والأفكار، وأحلامه التي عمل الخيال في بنائها حينما خانه البصر، كل ذلك شعر سام رفيع يجعله لا في مصاف الشعراء الوجدانيين فحسب بل في مصاف أعظم شعراء الدنيا.

- **فلسفة ابي العلاء** : إن الفلسفة العلائية فلسفة واسعة الأطراف متشعبة المسالك، بعيدة الغور، متعددة الجوانب. اتسعت لكل المشاكل

---

1) الدكتور انور حاتم في مجلة دمشق

واستوعبت كل المذاهب والنظريات، وشملت كل الأغراض، وتطلعت إلى عالم الغيب، كما تحدثت عن عالم الشهادة. فالمادة والزمان والمكان وتناهي الأبعاد وخلود الروح والموت والبعث والتناسخ والجبر والاختيار والجن والملائكة والنبوءات والديانات، كل ذلك أغراض هاته الفلسفة وموضوع نظرها. وقد تناولت الفلسفة العلائية الانسان أيضاً فتحدثت عن أصله وعن أخلاقه وغرائزه وعاداته وعن الزواج والنسل والمرأة وغير ذلك وان تقرأ كل ما قاله في هذه الأغراض والمطالب ثم تسأل بعد ذلك هل أبو العلاء من الفلاسفة الماديين أو الروحيين؟. ولكنك لا تستطيع أن تجيب على هذا السؤال بالضبط، فإن قلت أنه فيلسوف مادي أصبت لأنه يمكنك أن تأتي بأدلة من شعره تؤيد أنه كان ينظر إلى بعض المشاكل نظرة الماديين، ويجيب عنها بنفس أجوبتهم، وإن قلت إنه فيلسوف روحي أصبت كذلك، لأنه يمكنك أن تقيم الدليل على أنه كان يرى رأي الفلاسفة الروحيين في طائفة كبيرة من مسائل الفلسفة والأخلاق. ثم تمضي في قراءة أبي العلاء وتسأل: هل هو من أصحاب الشك أم من أصحاب اليقين؟ فإن قلت أنه من أصحاب الشك لم تَعْدُ الصواب لأنه يقدم إليك البرهان على شكه بأمثال هذه الأبيات:

أصبحت في يومي أسائل عن غدي متخبّرا عن حاله متندّسا
أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا

وإن قلت إنه من أصحاب اليقين صدقت لأنك تراه يؤمن بأشياء ويناضل عنها ويثبت أشياء أو ينفيها ويحتج لنفيها أو إثباتها كما يفعل أصحاب الجزم واليقين ويعترف أبو العلاء بأن كل شيء قابل للنفي والاثبات:

ويعتري النَّفسَ إنكارٌ ومعرفة وكل معنى له نفي وإثبات

وعلى هذا لا يمكن أن نقول أن أبا العلاء كان شاكاً من كبار الشاكّين

الذين لا يؤمنون بشيء على التحقيق ويرون في كل مثل من أمثلة الحياة العليا شيئاً من الوهم والخداع، ولا يمكن كذلك أن نقول أن أبا العلاء كان من أصحاب اليقين والإيمان لأنه طالما أكد ثم نفى، وطالما أحبَّ ثم كره. والحق أن أظهر صفات أبي العلاء هي التناقض - وهذا التناقض هو الذي يفسر لنا كثيرا من آرائه التي أثبتها ثم نفاها وآمن بها ثم شك فيها - والتناقض من طبيعة أصحاب الأمزجة السوداوية وهي أمزجة يضيق أصحابها بالناس فيميلون إلى العزلة والانفراد، ويُلحُّ عليهم الوجوم والحزن المجهول السبب، ويكثر ذمهم للدنيا وسوء ظنهم بالناس، وذكرهم للموت ومتى علمنا أن أبا العلاء كان زيادة على هذا المزاج السوداوي رهين ثلاثة سجون على حد قوله :

أُراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسم الخبيث

متى علمنا ذلك أمكننا أن نفسر بعض الشيء تناقض هذا الشاعر الفيلسوف.

وفي رأيي أن شيخ المعرة كان يسيطر على نفسه ملكتان كان حظه منهما وافرا على السواء وهما العقل والخيال.

لقد كان أبو العلاء يعتمد على العقل، ويعتزُّ به، ويحكّمه في كل مشكلة، ويرجع إليه في كل معضلة. بل كان يأتمّ به، ويستسلم له في ثقة واطمئنان :

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهدا وأرحل عنها ما إمامي سوى عقلي(1)

---

1) يقول في العقل ايضا :
كذب الظن لا امام سوى العقل مشيرا في صبحه والمساء.
ويقول مشيدا بالعقل :
العقل قطب والامور له رحى فيه تدبر كلّها وتدارْ
ويقول :
أيها الغر إنْ خُصصت بعقل فاسألنه فكُلُّ عقل نبيٌّ
ويقول : « والعقل أولى بإكرام وتصديق ».

ولكنّ أبا العلاء رزق مع العقل القوي حظاً كبيرا من الخيال – وخيال المعري لا يظهر من شعره في اللُّزُوميّات لأنه تعمد إخلاءها منه كما ذكر ذلك في المقدمة، ولان طبيعة الأغراض التى نظم فيها لا تتطلب منه الاعتماد على الخيال إذ كان المقصود تقديم نتيجة تأملاته فى الحياة والأحياء في قالب الحكمـة وعلى طريقة الفلاسفة فى التجريد – ولكن خيال أبي العلاء يظهر قوياً فى رسالة الغفران وفى رسالة الملائكة وفى العالم الشعري الذى أحاط باللزوميات . فهو عالم معمور بالرؤى والتصورات مأهول بالآراء والنظريات التي تتصارع وتضطرب حتى يخيل إليك أن فلاسفة الأرض هي التي تتخاصم وتتصادم بفضل ما أسبغ عليها الشيخ من حيوية وما كساها به من قوة وصدق ووضوح . فإذا قلنا أن أبا العلاء صاحب خيال ، فلسنا نعني أن خياله يتجلّ لنا من شعره إذا أخذناه قطعة قطعة وحللناه بيتاً بيتاً . وإنما نعني أن حياته وأدبه ومنهج تفكيـره وطريقة تصوره للمعاني الفلسفية تدل فى مجموعها على تسلط الخيال على نفسه ، وإنه ملكة من ملكاته لا تقل عن ملكته العقلية التي امتاز بها .

نعم لقد كان أبو العلاء قوي الخيال، بعيد آماده كما كان في الوقت نفسه قوي العقل عميقه «فلم يستطع الخيال قط أن يسيطر عليه أو يستأثر به بل وجد من العقل ما يحدّه ويردّه إلى التواضع والاعتدال» (1) .

كان يقرأ المذاهب الدينية فيزين له الخيال ما فيها من جمال وروعة ، وما تبعثه في النفس من آمال وأحلام فيثبت من هاته الأحلام شيئاً في شعره ولكنّ عقله يعرض لتلك الآمال والأحلام فيمحوها محوا . ويقرأ في كتب الفلسفة حديث خلود الروح فيستهويه ، وتميل نفسه إلى الإيمان بذلك، ويجمح به الخيال إلى تصور جمال هاته المعتقدات . ولكن سرعان

1) طه حسيـن : مع ابي العـلاء

ما يأتي العقل فيدفعه إلى البحث والتعليل، ويطالبه بالحجة والدّليل، ويظلّ بين عقله وخياله في صراع عنيف قوي لايتنازل فيه أحدهما للآخر، ويظلّ بين هاتين القوتين من أمره في حيرة واضطراب: يؤمن مرة فيرجو أو يخاف وينكر مرة فيدركه اليأس والجزع ويضطرب بين الإيمان والانكار، ويظل من ذلك في عذاب وعناء. وهاته حالة لا يطيب معها العيش، ولا تهنأ الحياة. لذلك نرى المعري يبلغ به الجزع أحياناً حتى تصدر عنه مثل هاته الصيحة:

أعـن باكيـاً لـج في حـزنـه وسل ضاحك القوم مما ابتهـج

وربمـا استولى عليه اليأس والقنوط إلى درجة يتمنّى معها الموت:

لعَـلّ موتاً يريح الجسم من نصب إن العناء بهـذا العيش مقتـرن

ولكن سرعان ما يطير به الخيال فيشفق من أنه ربما لا يجد في الموت الراحة والطمأنينـة اللّتين أخطأهما في الحياة فيقول:

إن كان نقلي عن الدنيا يكون إلى خير وأرحب فانقلني على عجـل
وإن علمـت مآلـي عنـد آخرتي شرا وأضيق فانسأ ربّ في الأجل

وهكذا يظل في حيرة متصلة لا يهتدي فيها العقل ولا تستقر فيها النفس.

فلو كانت نفسية أبي العلاء غير مزدوجة هذا الإزدواج لقاده الشك إلى اليقين كما قاد الغزالي أو إلى الالحاد كما قاد «أناتول فرانس» مثلا. ولو كانت عقلية أبي العلاء غير مزدوجة لأداه العقل إلى اعتناق فلسفة روحية كما فعل «المعتزلة» أو إلى اعتناق فلسفة مادية كما فعل «الابيقوريون». أما هو فقد كتب عليه أن يظل حائماً حول كل هاته المذاهب دون أن ينتسب إلى واحد منها، ودون أن يستطيع أحدها أن يدعيه لنفسه أو يدخله في حظيرته وينتظمه في جنسه.

* * *

وقد يبدو لبعض الناس أن أبا العلاء في لزومياته رجل مضرّ خطر على

البشر في حياتهم . فهو صاحب فلسفة تعلّم الناس التشاؤم وكراهة الجنس البشري، وتزهّدهم في الحياة، وتقبّح إليهم الدنيا. وهو رجل لم تره الحياة إلا وجهها العابس الكالح فحكم عليها بمزاجه السوداوي وطبيعته المتوحدة ووحشة محبسَيْه ـ وهو على كل حال لا يصلح أن يكون أستاذا لكل الناس وخاصة للشباب لأنه يخمد فيهم جذوة الحماس، ويفتّ بإنكاره ونفيه في عزائمهم، ويزرع في قلوبهم اليأس من إصلاح البشر بمثل قوله :

فلا تأملْ من الدنيا صلاحاً ... فذاك هو الذي لا يُستطاع

وهو يغرس في نفوسهم الشك في جدوى كل عمل، وفائدة كل مسعى بمثل قوله :

ترى التشمير فيها كالتواني ... وحرمان العطية كالنجاح
ومن تحت التراب كمن علاه ... فلا تَخْدَعْك أنفاس الرِّياح

وقوله :

نزول كما زال آباؤنا ... ويبقى الزّمان على ما ترى
نهار يضيء وليل يجيء ... ونجم يغور ونجم يُرى . . .

نعم! يبدو لأول وهلة أن فلسفة أبي العلاء ليست فلسفة حياة، وأنها لا تبعث على الكدح والجلاد، وهي إنما تعجب كل ضعيف النفس، خوار العزيمة، فاشل السعي، متخلف الحظ. حرمته الحياة كل نعمة فأخذ يتظاهر باحتقارها، والتزهيد فيها، والتقبيح لها . وإن الذي يتلقى دروس الحياة عن هذا الشيخ الضرير الشاك في جدوى كل عمل، الساخر من كل شيء، لا يمكن أن يكون رجلا ناجحاً في الحياة، قوياً في النضال والجلاد، لكن متى تأمل المتأمل هذه الفلسفة رآها على غير ما يبدو له منها لأول وهلة. فأبو العلاء رجل متشائم لا محالة ولكن تشاؤمه من النوع الرفيع إذ كان ينطوي على الرحمة .

فالمعري رجل تكشفت له ضلالات الحياة وأباطيلها - فهو ينظر إلى هؤلاء الأحياء في خصامهم واضطرابهم، ويلاحظ النوازع التي تحركهم، والبواعث التي تدفعهم، ويرقب في محبسه منظر الخليقة وهي تتصارع وتتدافع، وتفترق وتلتقي، وتصطخب وتضطرب ليس في عصره فقط بل في كل عصور التاريخ التي سبقته، وفي كل الأمم التي مرت على وجه البسيطة:

ما مرَّ في هذه الدنيا بنو زمن   إلاَّ وعندِيَ من أخبارهم طُرف

يرقب كلَّ ذلك ثم يسجله بكل صدق وحرية، لا ينافق ولا يؤارب ولا يداري.

لقد أخذ على نفسه أن يُريَ الناسَ حقيقَتَهم الصغيرة في الحقيقة الكلية، ويُشعرهم بضيق آفاقهم التي يضطربون فيها أمام سعة الكون ورحبه، وهو لذلك يرحمهم ويَرثي لحالهم ويشمل بعطفه حتى الحيوان:

تسريح كفّك برغوثاً ظفرت به   أبرّ من درهم تُوليه محتاجاً

وانظر إلى عطفه وشفقته في مثل قوله:

إنَّ شقّاً يلوح في باطن البُـ   ـرَّة قَسْمٌ بيني وبين الضعيف

وهو لا يُبرِّئُ نفسه من أن يكون غير خاضع لما خضعت إليه البشرية من قوانين أزلية، وأحكام طبيعية فإذا رأيت ترفّع المعري المشوب بالنقمة، وثورته الساكنة وَحردهُ الصادق وهَجَس في نفسك أنه يعدّ نفسه فوق البشر أسرَّ في أذنيك:

رويدك لا تغتررْ يا أُخيّ بي فأنا الرجل الساقط.

ولو كنت ملقى بظهر الطريق لم يلتقط مثلي اللاقط.

وإذا قرأت أن المعري كان كعبة القصّاد والورّاد من طلبة العلم والحكمة، وأن ذكره طبق الآفاق فتحاسدت عليه الأمصار، وتنافست الملوك في زيارته والتلطف له أسرَّ في أذنيك مرة أخرى:

ماذا تريدون؟ لا مال تيسَّر لي   فيُستماح ولا علم فيُقتبس

أتسألون جهولا أن يفيدكُمُ   وتحلبون سفيهاً ضَرْعُهَا يَبِس

واللُّزوميات – بَعْدُ – بحر طام عجّاج، متلاطم الأمواج، فيها ما في المحيط من سعة وعمق وما في البحر من عجائب وغرائب. وهي تتسع لكل سابح وماتح، ولا يستطيع الذي يتكلم عليها إلا أن يتناولها من جانب أو جوانب. ولا يسعه أن يفسر حكمتها وحقائقها إلا حسب فهمه وذوقه وإدراكه؛ وإنها لتتسع لكل الفهوم والأذواق والمدارك.

ولكن من يدّعي الإحاطة بكل المعري؟ إن دعوى كهاته معناها إمكان الإحاطة بما في المحيط. وقد كتب الناس كثيرا عن أبي العلاء، ولا يزالون يكتبون عنه إلى ما شاء الله؛ وقد استوحى أدبَه رجالٌ عظام فرأوه في المنام أو أرجعوه إلى الحياة، وحادثوه في مشاكل الغيب، واستطلعوا رأيه في مشاكل الحاضر، وربما التمسوا منه المشورة والنصيحة. وإنه – والله – لمن أمتع المتع أن يحادث المرءُ أبا العلاء، أو يبعثه إلى الحياة بين اليقظة والمنام ليناقشه الحساب، أو يستلهمَه الصواب.

وحب اللزوميات معناه حب الحقيقة وإيثار الحكمة التي تصوّب نظرتها إلى الحياة فلا تفلت منها كبيرة ولا صغيرة، ولا تستَحي أن تُرِيَ الناس حقائقهم وحقائق دنياهم كما هي ليعرفوا ما فيها من حقير فيزهدوا فيه، وما فيها من جليل ليطلبوه ويتعلقوا به ويجعلوه قبلة أنظارهم، وغاية سعيهم. وبعبارة أشمل فاللزوميات تعلم الانسان كيف يرتفع عن حقارات الدنيا وضوضائها الفارغة، ويستصغر ما يعظمه الناس من شأنها حتى يظل دائماً في جو رفيع منيع لا ينزله منه اصطدامه بالواقع، أو تضُمُّه قيودها المادية وتحصره في دائرتها الضيقة، وتحجب عن بصره رحابة الكون، وأضواء الوجود، وسمو الفكرة.

وحسب الرجل أن يوفَّق إلى حمل الناس على التسامي بأنفسهم صُعُدًا، وحسب الشاعر أن يُمِدّ قرّاءه بزاد كمثل هذا الزاد.

التربية والتعليم في العهد الأغلبي

حضرات الزملاء الكرام !

طلب مني المشرفون على ملتقاكم الكريم أن أساهم في هذا الملتقى بإلقاء محاضرة عن التربيـــة والتعليم في العهد الأغلبـــي. فأجبت الطلب على انشغال بال ووفرة أشغال، علماً مني بأني إليكم أنتسب، ومعكم قضيت شطرا كبيرا من حياتي التعليمية.

ويسرني أن أكون أحد العاملين في صفوفكم لنشر المعرفة في بلدنا المحتاج دائماً إلى جهودنا وإلى نشاطنا في كافة الميادين التثقيفية.

يمتد العهد الأغلبي من سنة 184 هـ وهي السنة التي قلد فيها إبراهيم ابن الأغلب إمارة إفريقية واستطاع أن يجعلها متداولة في عقبه، وأن يجعل عاصمة دولته الناشئة مدينة القيروان... إلى سنة 296هـ وهي السنة التي زال فيها حكمها مع آخر ملك من ملـــوكها وهو زيادة الله الثالث. فتكون هاته الدولة الأغلبية العربية قد عمّرت في الزّمان ما يزيد عن مائة وعشر من السنين تولى خلالها أحد عشر أميرا – فكانت مدتها تزيد على مدة الدولة الأموية في الشرق التي لم تعمّر على جلالة قدرها سوى إحدى وتسعين سنـــة.

والذي يهمنا الآن من هذا العهد الأغلبي هو الناحية العلمية والتعليمية. وأول ما نلاحظه في هاته الناحية هذا النوع من الاستقلال العلمي إلى جانب ما أحرزت عليه إفريقية من استقلال ذاتي من طرف العباسيين.

وهذا الاستقلال العلمي في ميدان العلم يتجلى في نضج العلوم اللغوية والشرعية وغيرها بحيث أصبحت كتب التدريس يعتمد فيها على مؤلفات علماء القيروان أنفسهم كتفسير ابن سلاّم القيرواني المتوفي سنة 201 هـ ومدونة سحنون بن سعيد المتوفي سنة 240 هـ وكتب الطب والجغرافيا والتاريخ لاحمد بن الجزار القيرواني، وكذلك كتب النحو واللغة التي ألفها ونسقها وبوّبها تبويباً مبتكرا طبقات من النحاة واللّغويين القيروانيين والتي كانت لا تقل مكانة عن كتب نحاة البصرة والكوفة. وكانت لها شهرة بالشرق بدليل أن ابن خلكان في «الوفيات» والقفطي في «أنباء الرواة» وياقوت الحموي في «معجم الأدباء» والسيوطي في «بغية الوعاة» قد ترجموا للكثيرين منهم تراجم مسهبة. وقد ظهر هذا الاستقلال العلمي أيضاً في فتور حركة الرحلة لطلب العلم بالبلاد الشرقية فأصبح جامع القيروان من المعاهد التي يرحل إليها الطلاب من جميع الأصقاع: من الأندلس والمغرب والجزائر غرباً، ومن برقة وطرابلس جنوباً، وحتى من صقلية شرقاً.

وفي العهد الأغلبي نشأ هذا الفن المعماري المستقل وهو فن ذو طابع قيرواني بحت، يمتاز بهاته الابتكارات العديدة في إقامة الأقواس وطرق الإضاءة وتطويل الأعمدة بالحدّارات، كما يمتاز بهاته الطرز الهندسية التي تتجلّى في ما تركه الأغالبة من آثار وبناءات ولا سيما في جامع القيروان الذي يعتبر بحق طرفة أغلبية نظرا لأن الأغالبة هم الذين أعادوا بناءه من الأساس، وساهم في تجديده والزيادة فيه أغلب أمرائهم ابتداء من عهد زيادة الله الأول.

ومن مظاهر نضج العلوم في العهد الأغلبي استنباط بعض الفنون من الفقه الاسلامي والتخصص فيها والتوسع في تدوينها مثل الحسبة التي كانت ضمن أبواب الفقه فأفردت بالتأليف ومثل فن التربية الذي

دوّن فيه محمد بن سحنون المتوفي سنة 256 هـما سمعه من أبيه وغيره من العلماء في شؤون التربية وتعليم الصبيان.

ثم أضاف إلى سماعياته أقوالا وآراء استنبطها أو عقب بها على مروياته (1) وهاته الرسالة الفريدة من نوعها هي من أول ما أُلف في شؤون التربية وتعليم الصبيان – وسوف نتحدث عنها بشيء من التفصيل – إنما نود الآن أن نستعرض صورا موجزة لمعاهد العلم والتعليم في العصر الأغلبي.

والحقيقة أن معاهد العلم والتعليم في العصر الأغلبي قريبة الشبه بأمثالها التى أسست وانتشرت في كل بلاد العالم الاسلامي – وقد تطورت المعاهد فى الشرق نظرا للاتصال العلمي الوثيق الدائم بين المدائن الاسلامية في المشرق والمغرب وتأثر الواحدة منها بالأخرى – ويمكن أن نجعل فى مقدمة هاته المعاهد « المسجد » – فمن المعلوم أن أول عمل كان يقوم به الذين يعتنقون الاسلام شرقاً وغرباً هو بناء المساجد في المدن والقرى – ولم تكن المساجد الأولى خاصة بأداء الصلوات ، بل كانت أيضاً أماكن لقراءة القرآن وتعليمه للرجال والنساء والصبيان – وكان الناس يتعلمون هنالك الكتابة وينسخون المصاحف ولكن سرعان ما منع الفقهاء تعليم الصبيان في المساجد نظرا لما كانوا يحدثونه من تشويش على المصلين والمتعلمين ولعدم تحفظهم من تلويثه بالنجاسات. وهكذ أحدث الكتاب ملحقاً بالمسجد أو تابعاً له – وربما أحدث مستقلا عنه تمام الاستقلال كما نرى نماذج ذلك الموجودة إلى يومنا هذا بمدينة القيروان ... وتطوع المسلمون في أول الأمر بالتعليم في هاته الكتاتيب لما ورد من الأحاديث في فضل من تعلم القرآن وعلمه. ولكن عندما انتشر الاسلام وعم كافة الأصقاع

1) هي رسالة أدب المعلّمين لمحمد بن سحنون وسيأتي الكلام عليها.

تعذر أن يقوم التعليم على التطوع، وظهرت وظيفة التعليم وأخذ المعلمون الأجر وأفتى الفقهاء بجواز ذلك.

ويؤخذ من بعض المصادر التاريخية أن الكتاتيب - وقد يسمونها المكاتب - كانت خاصة بالصبيان، وأن ظهورها بدأ منذ عصر الفتوحات الاسلامية الأولى في بلاد الفرس والشام ومصر وفي جزيرة العرب، وقصة الأعرابي الذي أسلم إلى الكتاب بأمر عمر بن الخطاب حين امتحنه فوجده لا يعرف شيئاً من القرآن تدلنا على أن الكتاتيب كانت موجودة في المدينة منذ هذا العصر المبكر - وبقية قصة الأعرابي لا تخلو من طرافة - قالوا أنه أسلم إلى الكتاب فمكث فيه مدة ثم هرب وأنشأ يقول:

أتيت مهاجرين فعَلَّموني ... ثلاثة أسطر متتابعات
كتاب الله في رقّ صحيح ... وآيات القرآن مفصّلات
فخطّوا لي أبا جادٍ وقالوا ... تَعَلَّمْ سعفَصًا وقُرَيِّشَات
وما أنا والكتابةَ والتَّهجِّي ... وما حظُّ البنين مع البنات

ولا شك أن العرب حين فتحوا إفريقية فعلوا ما فعله غيرهم في سائر البلاد الاسلامية الأخرى - جاؤوا ومعهم عيالهم وأطفالهم - فأنشأوا في أول ما أنشأوا المساجد والدور ثم اتخذوا لصبيانهم محلا بسيط البناء أطلقوا عليه نفس الاسم الذي يعرف به في الحجاز وفارس والشام وباقي المدن الاسلامية، ثم جمعوا هناك صبيانهم وتطوع منهم من تطوع لتعليمهم ابتغاء الثواب أو مقابل أجرة متفق عليها. وظل عدد الكتاتيب يزداد وينتشر بانتشار العمران في القيروان وبقية المدائن الافريقية، وبازدياد إقبال البربر والأفارقة على الدين الجديد واستعدادهم للانصهار والتعرب وقبولهم مشاركة العرب في نوع المعيشة والسكنى، واقتباس اللغة والآداب والأخلاق. واستمر انتشار الكتاتيب في الدروب والأحياء والحارات وربما تعددت في الحارة الواحدة مثلما كانت المساجد تنتشر في الحارات -

وظلت الحالة هكذا إلى أن جاءت العصور الحديثة فحل المكتب العصري محلَّ الكتّاب فتضاءل شأنه أو تعطل أو حُوِّلَ إلى مرافق أخرى — وسوف تبقى منه بقية تعلن للأجيال المقبلة عن وجوده.

تلك هي سنة التطور — فنحن متى قارنا بين المدرسة الإبتدائية اليوم وبين كتاب الأمس نرى البون شاسعاً بينهما بمقدار البون الشاسع الذي يفصل بين حضارة القرون الوسطى، وحضارة القرن العشرين — لكنّ اعترافنا بتفوق المدرسة على الكتّاب من جميع الوجوه وفي جميع الأحوال لا يمنعنا من أن نخصَّ الكتّاب الذي أخرج طبقات من عظماء الرجال وكبار العلماء والذي قضينا فيه إلى عهد قريب شطرا من طفولتنا العذبة، نخصّه بأطيب الذكريات وأرق عواطف الحنين إلى ذلك العصر الذاهب المملوء بالطيبة والسّذاجة.

هل كانت الكتاتيب تؤوي بنات؟ الظاهر من بعض الأخبار أن البنات لم يكن يسمح لهن بالاختلاط بالصبيان إلا نادرا وفي حالة الطفولة الأولى. وهذا لا يعني أنهن كن محرومات من التعلّم. فقد كان بعض العلماء وبعض أصحاب الثراء يعلّمون بناتهم إما بأنفسهم أو بواسطة مؤدبين يؤجّرون لهاته الغاية. فقد ذكر القاضي عياض في ترتيب المدارك أن العالم الورع عيسى بن مسكين المتوفي سنة 275 ه كان يقرىء بناته وحفيداته بعد أن يفرغ من تعليم الطلبة. وكان أسد بن الفرات يعلم ابنته «أسماء» بنفسه، كما كان سحنون يعلم ابنته «خديجة» حتى جعلا منهما عالمتين كبيرتين. فكانت خديجة بنت الإمام سحنون تعلم النساء في ناحية بجامع القيروان.

كانت الكتاتيب إذن لتعليم الصبيان. أما المسجد فقد كان للعبادة والصلاة وكان كذلك مكاناً لتعليم القرآن والحديث للكبار، ومكاناً للقصّاص والفقهاء، أولئك يعظون بالقصص وهؤلاء يعلّمون الفقه

بل ربما كان المسجد محكمة للتقاضي كما كان يفعل سحنون في المسجد الجامع بالقيروان .

هل كانت في هذا العهد مراحل معينة للتعليم : مرحلة ابتدائية وأخرى ثانوية وثالثة عالية؟ الظاهر أنه لم تكن هناك إلا مرحلة واحدة تبتدئ بالكتاب أو بالمعلمين الخاصين وتنتهي بأن تكون للمتعلم حلقة في المسجد. فكل ما قرأناه في هذا الشأن عن طرق الدراسة سواء في الشرق أو في المغرب يشبه بعضه بعضاً. فمن المتعلمين من يصل إلى نهاية الطريق ويصبح من العلماء وهو القليل، ومنهم من يقفون في نصف الطريق أو بعضه - أما الأكثرون فنراهم يكتفون بما تعلموا في الكتّاب من قراءة وكتابة وحفظ ما تيسّر من القرآن ومن أمور الدين، ثم ينصرفون بعدها إلى عمل في الصناعة أو التجارة، ومنهم من يلازم الشيوخ يأخذ عنهم وينتقل من شيخ إلى شيخ ويرحل من بلد إلى بلد حتى يكتمل علمه ويكوّن لنفسه حلقة يعلّم فيها بدوره - أما المدارس العلمية فلم تظهر إلا في أواسط القرن الخامس الهجري على يد الوزير نظام الملك الذي بنى مدرسة بغداد ودرّس فيها الغزالي، ومدرسة «نيسابور» ودرس فيها إمام الحرمين الجويني . ثم تتابعت المدارس في العواصم الإسلامية وازدهرت في عصر الدولة الأيوبية والمماليك وحبست عليها الأوقاف لضمان حياتها . إلا أننا لم نر في المغرب وفي إفريقية مدارس من نوع المدارس النظامية في العراق وفارس بل ظل مركز الثقافة في المغرب جامع القرويين، وفي مصر الجامع الأزهر، وفي إفريقية جامع القيروان ثم جامع الزيتونة .

وفي العهد الأغلبي نجد نوعاً آخر من مراكز الثقافة والتعلّم لم يأخذ بعد حظه من الدرس والتحقيق في البحوث التاريخية وأعني بها (الرباطات) والدور الذي قامت به في الناحية التعليمية.

كان أول رباط أسس في إفريقية هو رباط المنستير الذي أنشأه الوالي «هرثمة بن أعين» سنة 181 هـ. فكان له دور هام في نشر العلم إلى جانب الدور الذي يقوم به كثكنة جعلت للمرابطة وحراسة الثغور من هجمات الروم على سواحل البلاد التونسية.

يشتمل الرباط على غرف انفرادية تُفتح كلُّها على صحن. وأما الطابق الأعلى فيشتمل أيضاً على غرف انفرادية تنتهي بمسجد ـ فكان أهل التقوى يتطوعون للمرابطة هناك مدة معينة. ويقومون إلى جانب الحراسة بمهمة تعليمية. فكان القادرون منهم يعلّمون الرجال والنساء. وكان غيرهم يقوم بأعمال علمية أخرى ـ فقد ذكر الأُستاذ عثمان الكعاك في كتابه «مراكز الثقافة في المغرب» نبذة عن هذه الرباطات ذكر فيها أنها كانت ـ زيادة على ذلك ـ معهد صناعة للحبر والرّق والكاغذ الذي يوزع على الطلبة بالمجان، وفيها دار استنساخ للمصاحف ومجاميع الحديث وكتب الفقه ـ وكان المؤلفون يحبسون تصانيفهم بخطوط أيديهم على الأربطة لتكون منها النسخة الأُم التي يرجع إلى نصها الصحيح. ويتولى المرابطون النساخون استنساخها لتكثير عددها وتوزيعها على طلبة العلم ـ وفي كل رباط مكتبة جدارية مُفرغة في طاقات من الحائط بها النسخ الأُمهات والمولّدة منها... إلى آخر ما ذكره. (1)

ونتحدث الآن عن كتاب محمد بن سحنون الذي يعرف بكتاب «أدب المعلمين» وهو مما دونه عن أبيه الامام سحنون ـ نَشر هذا الكتاب المرحوم الأُستاذ ح. ح. عبد الوهاب منذ ما يزيد على خمس وثلاثين سنة عن مخطوط وحيد نُسخ في القرن الثامن االهجري ظفر به في مجموعة رسائل فقهية ـ ولم يعثر على نسخة أخرى له لا في البلاد المغربية ولا

1) انظر «مراكز الثقافة في المغرب» لعثمان الكعاك ص 16 وما بعدها.

في غيرها. ولكن الكتاب كان معروفاً عند العلماء اعتمد عليه أبو الحسن القابسي كثيرا ونقل عنه واسترشد به وترسّم خطاه في كتابه المسمى «الرسالة المفصّلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين» (وقد نشره الدكتور أحمد فؤاد الأهواني بمصر في سنة 1945) ـ كما ذكر أدب المعلمين أبو إسحاق الجبنياني وأبو بكر بن خير الأندلسي وابن خلدون في المقدمة عند الكلام على التعليم وما يجب أن يكون عليه.

ورسالة «أدب المعلمين» تبلغ ستاً وعشرين صفحة من الحجم المتوسط. كلها تدور على أحوال تعليم الصبيان في القرن الثالث اتبع فيها طريقة الفقهاء أعني الاستناد إلى أصول القرآن والسنة والإجماع ـ فهو حين يحكم على شيء يحكم عليه حسب المصلحة الدينية أو الشرعية وحسب ما ورد في ذلك من نصوص عن كبار الفقهاء مثل مالك وابن القاسم وسحنون وغيرهم. على أن هاته الرسالة وإن كانت صغيرة الحجم ـ فإنها تكتسب أهميتها من عدة وجوه:

فهي أول تأليف خصص لموضوع تعليم الصبيان وأحكام الشرع في الأحوال والمسائل التي تعرض للمعلمين في علاقتهم مع أولئك الصبيان، وهي تعطينا صورة واضحة عن حالة الكتاتيب في القرن الثالث الهجري بمدن وقرى إفريقية، ومنها نعرف أن الكتّاب كان خلية حية في حياة الأمة، يفرح لأفراحها ويحزن لحزنها فنراه يغلق أبوابه ويتعطل إذا مات عالم جليل أو أمير عادل مشاركة منه في المصاب القومي ـ كما أن علاقة الآباء والأولياء بالمؤدبين واتصالهم الدائم بهم تتجلّى لنا واضحة في هذا الكتّاب وتجعلنا نعجب من تعاون الجميع على تربية الأطفال والسهر على تعليمهم بل ومراقبة تسيير هذا التعليم. إلا أن ابن سحنون لم يرتب المسائل التي تعرض لها ترتيباً معقولا في أبواب ولم يصنفها في أصناف بل أوردها متداخلة لا تربطها أية رابطة ولا يؤلف بينها نسق، بينما

نرى أبا الحسن القابسي - حين ألف رسالته المفصّلة في القرن الرابع، قد اجتهد في تبويبها وترتيبها وفي تفصيل المسائل التي تعرض إليها والإفاضة في شرحها مما يدل على فكرة استقرار التعليم في الذهن ومحاولة البحث على الطرق المؤدية إلى تحقيق الغاية من ذلك التعليم.

تعرض محمد بن سحنون إلى الفنون التي يجب على المؤدب أن يعلّمها لأطفاله فقسمها إلى قسمين: إجباري واختياري - فالإجباري منها تعليم القرآن الكريم مع إعرابه ورسمه بالشكل وإتقان الهجاء والقراءة الحسنة من توقيف وترتيل وأشار إلى أن الأنسب اتباع قراءة نافع، وحذّر من التغني بالقرآن ومنع من يقرأ من الصبيان بالتلحين والترجيع معتمدا في ذلك على ما ورد من الأحاديث الصريحة في منع التغني بالقرآن. أما القسم الثاني فهو الذي يبين الفنون التي استحسن ابن سحنون تعليمها للصبيان في الكتّاب، وإن كان المؤدب غير ملزم بها إلا إذا اشترط الآباء والأولياء تدريسها، وهي الحساب والشعر - بشرط أن يخلو من النظم المستهجن والقول الفاحش، ثم أخبار العرب وأنسابهم، ثم النحو والصرف والغريب والعربية والخط الحسن - وزاد على ذلك تدريبهم على الخطابة وذلك أمر ملفت للنظر في ذلك العهد.

ونورد في هذا المقام نَصّ عبارة المؤلف كنموذج على التداخل وعدم ترتيب المسائل، والجفاف الذي فيه كل خصائص تعبير الفقهاء قال:

«وينبغي أن يعلّمهم الحساب وليس ذلك بلازم له إلا أن يشترط».
«ذلك عليه، وكذلك الشعر والغريب والعربية والخط وجميع النحو».
«وهو في ذلك متطوّع - وينبغي له أن يعلمهم إعراب القرآن وذلك»
«لازم له، والشكل والهجاء والخط والقراءة الحسنة والتوقيف»
«والترتيل، يلزمه ذلك - ولا بأس أن يعلمهم الشعر مما لا يكون»
«فيه فحش من كلام العرب وأخبارها، وليس ذلك بواجب عليه».

«ويلزمه أن يعلمهم ما علم من القراءات الحسنة وهو مَقْرَأٌ نافع»
«ولا بأس إن أقرأهم لغيره إذا لم يكن مستبشعاً - ولا بأس أن»
«يعلمهم الخطب إن أرادوا - ولا أرى أن يعلمهم ألحان القرآن»
«لأن مالكاً قال : لا يجوز أن يقرأ بالقرآن الألحـان.......»

وتعرض ابن سحنون إلى واجبات المعلم فاشترط عليه أن يتفرغ للتعليم وألا يشتغل عنه بشيء آخر حتى كتابة المصاحف وكتب الفقه حالما يكون الصبيان عنده، وأن يخصص جميع أوقاته للنظر في ما يعود على تلاميذه بالنفع، بل عليه أن يراقب غدوّهم ورواحهم لمنازلهم، وأن يُعلّم أولياءهم بتغيبهم بدون عذر، ولا يجوز للمعلم أن يتخذ عريفاً يقوم مقامه إلا إذا كان في مثل كفايته وأخلاقه المرضية - وعليه أن يكون منقطعا تمام الانقطاع للتعليم ، ويُمنع عليه عيادةُ المرضى وتشييعُ الجنائز في أوقات العمل .

ومن واجبات المعلم العدل بين الصبيان والمساواة بين أبناء الأشراف وأبناء الفقراء، وأورد الحديث النبوي المروي عن أنس بن مالك : «أيّمـا مؤدب ولي ثلاثة صبية من هذه الأمة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غنيهم، وغنيّهم مع فقيرهم حُشر يوم القيامة مع الخائنين». وتعرّض ابن سحنون طويلا إلى مسألة العقاب أو ما كانوا يسمونه : - الأدب - وقد شدّد فيها على قساة المعلّمين الذين يتجاوزون الحدّ في الضرب وأورد في ذلك الحديث الذي حدثه به أبوه يرفعه الى النبيء صلى الله عليه وسلم : «شرار أمتي معلّمو صبيانهم أقلهم رحمة لليتيم، وأغلظهم على المسكين». ثم عقّب على ذلك بقوله : قال محمد وانما كان ذلك لأنه يضربهم إذا غضب وليس على منافعهم ولا بأس أن يضربهم على منافعهم ولا يجاوز بالأدب ثلاثا : إلا أن يأذن الأب في أكثر من ذلك إذا آذى أحدا. ويؤدبهم على البطالة واللعب ولا يجاوز بالأدب عشرة. وإما على قراءة

القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثة قلت : لمَ وَقَتْ عشرةٌ في أكثر الأدب في غير القرآن وفي القرآن ثلاثة . فقال (أي سحنون) : لأن عشرة غاية الأدب . وكذلك سمعت مالكا يقول . . . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يضرب أحدكم أكثر من عشرة أسواط إلا في حدّ» .. وقد اشتهر هذا الموقف من ابن سحنون نحو المسرفين في عقوبة الأطفال حتى قال أبو اسحاق الجبنياني – وكان من المربين – : رحم الله أبا عبد الله محمد بن سحنون ، لو علّم الصبيان لرفق بالمعلّمين .

وفي رأيي أن شهرة الكتاتيب بالقسوة والتشديد في العقاب واتخاذ (الفلقة) والعصي ربما كان له وجه من الصحة في العصور المتأخرة . أما في ذلك العهد فقد كانت متأثرة بموقف الفقهاء وتواتر الأحاديث المروية في عدم تجاوز الحدّ في عقوبة الصبيان والأرقّاء . فكل الآثار المروية تقول إنّ كلّ من تجاوز الضربات الثلاث أو العشر كان مسؤولا عليها عند الله ومتعرضاً لإقامة الحد الشرعي عليه إن لحق الصبيّ ضررٌ أو أذى من الإفراط في العقوبة . بل نرى أن بعض الآباء كانوا يرسمون للمعلمين طريقة تناسب طبيعة أبنائهم وحساسية نفوسهم وذكاءهم الفطري . ألم يوص سحنون بنفسه معلم ابنه محمد حين دفعه إليه بقوله : «لا تؤدبه إلا بالمدح ولطيف الكلام فليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف» . كما جاء ذلك في ترجمة حياته بمعالم الايمان(1) .

ومن الأمور التي تعرّض لها ابن سحنون مسألة تخلية التلامذة أو ما نسميه نحن بالعطل المدرسية . فقد سأل المؤلف أباه عن مقدار تسريح التلامذة في الأعياد فقال : عيد الفطر يوم واحد ولا بأس أن يأذن لهم

1) معالم الايمان للدباغ في ترجمة محمد بن سحنون – ص 80 – ج 2

ثلاثة أيام، وعيد الأضحى ثلاثة أيام ولا بأس أن يأذن لهم خمسة أيام. أما عطلة الاسبوع فهي كامل يوم الجمعة.

وتعرض إلى شهادة الأطفال بعضهم على بعض فنقل رأي سحنون في هاته المسألة وهو أن يؤدبهم إذا آذى بعضهم بعضا متى ثبت لديه وقوع الأذى باعتراف المرتكب له أو بشهادة الجميع عليه. أما إذا كان يُعرف صدقُ الصبي فيقبل قوله في المؤذي ويُعاقبه على الأذى و لا يجاوز الحد المعين في الأدب - ولا يُولي أحدَهم القيام بالضرب لما بينهم من الغيرة - كما يجب على المعلم أن ينهاهم على إيذاء بعضهم بعضاً ويرد ما أخذ بعضُهم لبعض.

ثم تعرض إلى كتابة القرآن ومس المصحف، فأجاز للمعلم أن يكتب القرآن ويقرأه وهو على غير وضوء، وكذلك الصبي المتعلم الذي لم يبلغ الحلم. أما المصحف فلا يمسه الصبي إلا إذا كان على وضوء ويجب أن يعوّدوا ذلك حتى يتعلّموه.

ومن الأمور التي بيّنها ابن سحنون عقاب المعلم القاصر أو المقصر الذي لم يتحصّل المتعلّمون على يديه أية نتيجة، فإنه يحرم من الأجرة المتفق عليها. كما تعرض إلى الأحكام الشرعية التي تطبّق على المعلم في صورة ما إذا أدّب صبياً فلحقه من ذلك ضرر كأن يموت من أثر الضرب أو تفقأ عينه أو يمرض من أثر ذلك فيموت.

ويؤخذ من جملة كلامه في هذا الموضوع أن العقاب لا يسلط على المعلم إلا إذا جاوز الحد المحدود في العقوبة أما ما عدا ذلك ففيه تفصيل يطول شرحه.

وفي «رسالة أدب المعلمين» جملة مسائل ربما تدخل في فن التعليم أو ما نسميه اليوم «بالبيدغوجيا» فهو يوصي المعلم بأن يجعل لعرض

القرآن، أي تكراره وقتاً معلوماً مثل يوم الخميس وعشية الاربعاء، كما عليه أن يعلمهم الكتابة من وقت الضحى إلى وقت الرّواح. ونصح بأن يجعل بعضهم يملي على بعض لأن في ذلك منفعة لهم (كما يقول) لكن بشرط أن يتفقد إملاءهم. ولا يجوز للمعلم أن ينقل تلاميذه من سورة إلى أخرى حتى يحفظوا الأولى بإعرابها وكتابتها إلا إذا كان هناك من يُسَهِّل للصبي الحفظ والكتابة خارج الكتاب مثل أبيه أو وليه أو من يؤجر لهاته الغاية بشرط ألا يكلف التسهيل الصبي مؤونة في ماله وإلا فلا يُسهَّل على المعلم. وحجَّر سحنون على المعلم أن يرسل الصبيان لقضاء حاجته، أو يرسلهم في طلب بعضهم البعض إلا أن يأذن له آباؤهم أو أولياؤهم في ذلك، أو تكون الأماكن قريبة لا تسبب تضييع أوقاتهم.

هذا أهم ما جاء في رسالة محمد بن سحنون خاصا بحياة الكتاتيب ومسائل التربية والتعليم في القرن الثالث الهجري. ومن خلالها يتضح لنا ان حياة الكتاتيب وطرق التعليم فيها لم تتغير أي تغيير في القرن الرابع الهجري حين كتب أبو الحسن القابسي رسالته في تفصيل أحوال المعلمين والمتعلمين، فاننا نقرأ ما كتبه عن الكتاتيب وعن طرق التعليم فيها في عصره فنرى التشابه واضحا والصورة كاملة في كلا العصرين . وها نحن أولا نستخرج من كتاب القابسي صورة لتعليم الصبيان في القرن الرّابع: قال ما خلاصته: «يُرسل الصبي الى الكتّاب اذا عقل، وهذه الكتاتيب منتشرة في أنحاء المدن والقرى وقد تكون الى جوار المساجد وقد تكون بعيدة عنها ولا تكون بداخلها على أية حال، ويقوم بالتعليم في هذا الكتاب معلِّم هو الذي يستأجر الكتاب ويتخذه مكانا للتعليم. وقد يشترك معلمان أو أكثر في التعليم بالكتاب إذا كان عدد الصبيان كثيرا. ولكنَّ الغالبَ أنَّه معلم واحد. وليس للحاكم سلطان على هذه الكتاتيب فهو لا ينشئها ولايشرف على سير التعليم فيها ولا شأن له بها وإنما يفتتح المعلمون

الكتاتيب من تلقاء أنفسهم ويدفع إليهم الآباء بأبنائهم حسب رغبتهم. ويتلقى الصبيان التعليم مقابل أجر يدفعونه الى المعلم قد يكون مشاهرة ومناساة وقد يكون بمقدار ما تعلم الصبي. والكتّاب مكان متواضع فقد يكون حانوتا وقد يكون حجرات في منزل. ويذهب الصبيّ مبكرا إلى الكتّاب فيبدأ بحفظ القرآن ثم يتعلم الكتابة، وعند الظهر يعود الى المنزل لتناول الغذاء، ثم يرجع بعد الظهر ويظل حتى آخر النهار. وعطلة الصبيان من بعد ظهر يوم الخميس وكامل يوم الجمعة. يبقى الصبي بالكتاب للدراسة الى وقت البلوغ أو بعده بقليل يتعلّم القرآن والكتابة والنحو والعربية وقد يتعلم الحساب والشعر وأخبار العرب. على أن أهمّ ما يدرس الصبي هو حفظ القرآن على الطريقة الفردية أو الجمعيّة إذ يبدأ المعلم أو العريف بآيـة فيرددها الصبيان من بعده ولكل صبي لوح يكتب فيه فيثبت فيه ما يريد أن يحفظه ثم يمحوه ليكتب شيئا جديدا. وليس من اللازم أن يحفظ الصبي القرآن كلّه الا إذا كانت تلك رغبة أبيه. وإذا أتمّ الصبيّ مرحلة التعليم في الكتّاب اجتاز امتحانا في ما حفظ من القرآن وفي الكتابة. واختبار حفظ القرآن كله يسمّى «ختمة» وعندئذ إما أن ينقطع عن التعليم ويتجه الى الصناعة التي يريدها أن يزاولها لكسب معاشه. وإما أن ينصرف الى مرحلة أخرى من التعليم أرقى من تعليم الكتاب» (1).

هذه هي الصورة التي نستخلصها من الاطلاع على كتاب القابسي المتوفي سنة 403 هـ ومنها نرى أن الكتّاب وطريقة التعليم لم تتطور في افريقية بل في العالم الاسلامي كثيرا منذ عصر سحنون الى زمن القابسي أو حتى الى العصر الذي أدركناه.

فهل هاته الصورة التي اقتبسناها من ابن سحنون والقابسي عن حالة

---

1) انظر التعليم في رأي القابسي نشر الدكتور احمد فؤاد الاهواني 1945.

التعليم والمعلمين هي حالة خاصة بأفريقية أم هي عامة في جميع أنحاء العالم الاسلامي أي بلاد العرب وفارس والعراق والشام ومصر والاندلس؟ ـ لكي نجيب على هذا السؤال يجب أن نرجع الى كتب التاريخ ونوازن بين أقوال المؤرخين وأوصافهم، فابن خلدون قد تحدث عن حالة تعليم الصبيان في المقدمة في الفصل الذي عنوانه «فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الاسلامية في طرقه»(1)، كما تحدث عن حالة تعلم الصبيان في الاندلس أبوبكر بن العربي صاحب كتاب «أحكام القرآن».

ويستنتج مما كتبه هذان العالمان أن الاقطار الاسلامية اتفقت في أشياء واختلفت في أشياء: اتفقت في اتخاذ الكتاتيب وفي قيام معلمين مخصوصين بالتعليم يتناولون الأجر على ذلك وقد برز منهم جماعة في الشرق مثل الكميت ابن زيد الشاعر والحجاج بن يوسف وأبوه وعبد الحميد الكاتب وأحمد ابن أبي دؤاد الذي تولّى الوزارة للعباسيين فيما بعد. كما اشتهرت جماعة من المؤدبين في إفريقية منهم شقران الهمداني دفين القيروان وأسد بن الفرات وأبو عبد الله الصنعاني داعية العبيديين وأبو اسحاق الجبنياني وغيرهم. أما الذي اختلفت فيه الأمصار فهو طريقة التعليم وترتيب الأوّلية لبعض العلوم. فقد ذكر ابن خلدون انّ أهل المغرب كانوا يقتصرون على القرآن، ويخلط أهل إفريقية (اي القيروان) القرآن بالحديث والخط بينما يهتم أهل الاندلس مع القرآن بعلوم العربية والخط. أما أهل الشرق فيضيفون الى القرآن بعض العلوم ولا يهتمون بالخط في الكتاتيب(2).

---

1) المقدمة ص 535 . طبع بولاق .

2) ابن خلدون: المقدمة . ص 536 . طبعة بولاق .

صناعة الشعر بين ابن رشيق وبوالو

يذهب بعض الناس الى القول بأن بوالو الشاعر الفرنسي والناقد الذي كان يعيش في القرن السابع عشر في عصر لويس الرابع عشر قد انتهى إليه كتاب «العمدة» في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني بوجه من الوجوه فنقل منه كثيرا من الآراء والنظريات في كتابه فنّ الشعر L'Art poétique وكان للناقد العربي بذلك فضل السّبق على الناقد الفرنسي.

ولا أدري ما هي حجة هؤلاء الناس في إثبات هذه الدعوى. فليس كتاب ابن رشيق من الكتب التي تفيد الأدب الفرنسي في القرن السابع عشر أو قبله حتى يحرص على ترجمته في جملة ما ترجم من كتب الطب والحكمة والأمثال والحكايات وإنما هو كتاب أدب خاص بالشعر العربي، ألفه صاحبه في صناعة الشعر العربي ونقده وجمع فيه كثيرا من الشواهد والأقوال المتفرقة في مئات الكتب والدواوين مما لا يفيد إلا في معرفة أحوال الشعر العربي خاصة.

وأحسب أن القائل بهذا الرأي قد رأى لهذين الأديبين آراء متقاربة أو متشابهة فظن أنه لابد أن يكون المتأخر في الزمن قد اطلع على هاته الآراء واقتبس منها. وقد نسي صاحب هذه الدعوى أنه ليس من الضروري أن يطلع أحد النقاد على الآخر لينتهي الى نفس النتيجة أو يأتي بمثل الرأي الذى أتى به المتقدم. ففي الادب أمكنة وموضوعات يمكن ان يلتقي فيها كل من يكتب عن صناعة الشعر ويعرض لقواعده وقوانينه. وسنحاول في هذه الكلمة المقارنة بين الآراء التي تقارب.فيها هذان الناقدان ونستخلص منها الدليل على أن غاية الأدب قد تختلف في بعض التفاصيل، تبعا لاختلاف

الأمم واللغات والطبائع، ولكنها كثيرا ما تتفق في الجوهر وتتحد في الأصول.

يقول «بوالو» في ضرورة الملكة الشعرية لمن يتعاطى الشعر (الأبيات 1 ـ 12) :

«من العبث ان يطمع الأديب الجريء في إدراك قمة النجاح في قرض الشعر إذا لم يكن يحسّ في قرارة نفسه بدافع خفيّ يدفعه إليه من قِبَل السماء، وإذا نجمه حين الولادة قد قضى أن يكون شاعرا، فإنه سيظل أسير ملكته الضيقة على الدوام. فيامن تغامسرون لتعاطي هاته الصناعة يحدوكم إليها حماس متقد لا تُكَرِّسُنَّ أعماركم لقرض شعر لاتكون لكم في قرضه ثمرة ولا تحسبُنَّ شهوة قول الشعر هي الملكة الموهوبة».

ويقول ابن رشيق في هذا المعنى في باب الأوزان (العمدة ص 86 وص 99 طبعة هندية):

وقد ذكرت ما يليق ذكره بهذا الموضع ليعرفه المتعلم غير متكلف به شعرا الا ما ساعده عليه الطبع وصح له فيه الذوق، لأني وجدت تكلف العمل بالعلم في أمر من أمور الدين أوفق إلا في الشعر خاصة فإن عمله بالطبع دون العروض أجود». ويقول في مكان آخر :

«وسبيل الحاذق بهذه الصناعة اذا غلب عليه حب التصنيع أن يترك للطبع مجالا لا يتسع فيه».

ويقول «بوالو» في عدم الوضوح الى ما تجرّ إليه القافية إذا تهيأ المعنى (الأبيات 27 ـ 38) :

« مهما يكن الموضوع الذي تتناوله ـ سواء أكان جليلا أم خفيفا ـ فالواجب هو أن يقع التطابق بين القافية والمعقول، وإن خيّل أنّ أحدهما ينافي الآخر فإنما القافية عبد للشاعر لابدّ لها من الطاعة. ومن أخذ نفسه بالشدة في البحث عن القافية الملائمة صار ذلك سليقة له وعادة، وأصبحت القافية

عنده خاضعة لسلطان العقل دون تكلف او عناء، فلن تبقى مما يضايقه، بل تصبح من خدامه وتوفّر ثروة معانيه ... أما اذا تهاون بها وتساهل في أمرها فإنها تصير مستعصية عليه ويصبح المعنى خاضعا لها يجري وراءها ليدركها».

وفي هذا المعنى يقول ابن رشيق (العمدة ص 91 - طبعة هندية):

«وينبغي للشاعر أن يركب مستعمل الأعاريض ووطيئها، وأن يستجلي الضروب ويأتي بألطفها موقعا، وأخفّها مستمعا، وأن يتجنّب عويصها ومستكرهها. فإن العويص مما يشغله ويمسك من عنانه، ويوهن قواه، ويفتّ في عضده ويخرجه من مقصده».

ويقول في مكان آخر (العمدة ص 87 هندية):

«كان بعض الحذاق يقول: قُلْ من الشعر ما يخدمك، ولاتقل منه ما تخدمه»

وفي باب عمل الشعر يقول (ص 141):

«ومن الشعراء من ينصب قافية بعينها لبيت بعينه من الشعر مثل أن تكون ثالثة أو رابعة أو نحو ذلك لا يعود بها ذلك الموضوع إلا انحلّ عنه نظم أبياته، وذلك عيب في الصنعة شديد ونقص بيّن لأن الشاعر يصير محصورا على شيء واحد بعينه مُضَيقًا عليه وداخلا تحت حكم القافية».

ويقول «بوالو» في الوضوح والغموض (الأبيات 147 - 157):

«بعض العقول تغشاها سحب كثيفة من المعاني الغامضة لا يعرف لها نهار يخرق ظلماتها بضيائه. فلتتعلم كيف تفكر قبل ان تتعلم كيف تكتب. وتبعا لوضوح المعنى في فكرك أو غموضه يكون تعبيرك عنه وضوحا أو غموضا. وكل ما تتصوره في ذهنك بجلاء يخرج جليا وتجيء الكلمات التي تؤديه بكل سهولة ويسر».

وابن رشيق يقول في هذا المعنى (العمدة ص 134):

«وليلتمس الشاعر من الكلام ما سهل، ومن القصد ما عدل، ومن المعنى ما

كان واضحا جليا يعرف بديًا. فقد قال بعض المتقدمين: شرّ الشعر ما سُئِل عن معنـاه».

وقد انتقد ابن رشيق كثيرا من الشعراء الذين يجنحون الى الغموض إما إيثارا للفخامة اللفظية أو سترا لتفاهة المعنى، وذلك كنقده لابن هانئ الاندلسي بمثل هذه الشدة. قال (العمدة ص 80):

«وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل كأبي القاسم ابن هانئ ومن جرى مجراه فإنه يقول في أول مذهبته:

أصاخت فقالت وقعُ أجردَ شيظم   وشامت فقالت لمعُ أبيضَ مَخْذَمِ (1)
وما ذُعرت الا لجرْس حُلِيّهـــا   ولا رمقت الا بُـــرًى في مُخــــدَّمِ

«وليس تحت هذا كلّه إلا الفساد وخلاف المراد».

وتعرض «بوالو» الى شحذ القريحة لعمل الشعر وإعمال النظر فيه بالتنقيح والتجويد فقال (الابيات 163 ـ 174):

«متى أردتَ العمل فاعملْ بتأنٍّ وتُؤدة مهما يكن الدّاعي الذي يستعجلك، ولاتبتهج بقدرتك على السهولة وسرعة الطبع ومؤاتاته لأن الطبع السريع كل السرعة والذي ينظم وهو يعدو لا يسعه ان يدل على كل ما يمكن أن يَرِد على الخاطر او ينتظم كل ما يتمّ به الحكم. وإنّ الغدير المترقرق يتهادى في المرج المعشوشب لأحبّ إليّ من السيل الجارف الذي يتدفق في هدير على الأرض الوحلة، وهو ملآن حَصًى. اذن لتعجلوا في تؤدة ولا تأنفوا ان تضعوا نسيجكم على المنوال عشرين مرّة لتنقّحوه بدون كلل ولتعيدوا فيه النظر بالزيادة تارة وبالمحو تارات».

---

1) شرح البيتين: اصاخت: اصغت واستمعت ـ الاجرد: الجواد السباق. والشيظم: القصير الشعر. شامت: نظرت. والابيض صفة للسيف. والمخذم: القاطع من السيوف. الجرس: الصوت. البرى واحدة البرة: وهي حلقة الخلخال. والمخدم: موضع الخلخال والمعنى هذه المرأة المتغزل بها لبست حليها فتوهمته بعد الاصغاء إلى وسوسة الحلي ورمقه وقع فرس او لمع سيف.

وابن رشيق يعقد بابا للكلام على عمل الشعر وشحذ القريحة له فيقول (العمدة ص 137) :

«ولا يكون الشاعر حاذقا مجوّدا حتى يتفقد شعره ، ويعيد فيه نظره فيسقط رديئه، ويثبت جيده، ويكون سَمْحاً بالركيك منه، مطرحا له راغبا عنه، فإن بيتا جيّدا يقاوم ألفي رديء». ويقــول (ص 87) :

«أول ما يحتاج اليه الشاعر بعد الجدّ الذي هو الغايــة، وفيه وحده الكفاية حسنُ التأني والسياسة وعلم مقاصد القول».

ويقول «بوالو» (الابيات 26 الى 33) :

«لأَنْ تكون بناءً أو صانعا ينتفع بك في صناعة اذا كنت ميسّرا لها، خير من ان تكون كاتبا سوقيا أو شاعرا سخيفا، ففي كل عمل أو كل صناعة درجات تتفاوت، وقد ينال الرجل الشرف ولو لم يكن يشغل مكانا في الصفوف الأُولى. أما فنّ الشعر والكتابة فلا وسط فيه، وليس فيه درجات تبتدئ في الوسط وتنتهي الى الأَدنى» .

وهذا قريب ممّا ينقله ابن رشيق عن بشر بن المعتمر (عمدة ص 142) وهي صحيفة بليغة حوت كثيرا من النصائح والفوائد في عمل الشعر. ويعقّب ابن رشيق على قوله :

«فإن أنت ابتليت بان تتكلف القول وتتعاطى الصَّنعة ولم تسمح لك الطباع فلا تعجل ولا تضجر ودعه بياض يومك أو سواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فإنك لا تعدم الإجابة والمؤاتاة إن كانت هناك طبيعة أو جريت في الصناعة على عِرْق . فإن تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل، ومن غير طول إهمال فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هاته الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفّها عليك...»

ويقول «بوالو» في التّكسب بالشعر (الأَبيات 125 ــ 140) :

«اعملوا لأَجل المجد ولا يكوننّ اكتسابُ المال هو الهمّ الوحيد للكاتب

العظيم. نعم أعرف أن الرّجل الشريف يمكنه أن ينال من عمله ربحا مشروعا دون جرم يجترمه، ولكني أمقت هؤلاء الأدباء الجهيرين الذين سئموا المجد، وتكالبوا على المال فجعلوا أدبهم وقفا على هوى الورّاقين واتخذوا هذه الهبة السّماوية السّامية متجرا ومرتزقا».

ثم يبسط «بوالو» كيف نشأ الشعر في أول الأمر لغاية شريفة وهي تهذيب الأخلاق وتلطيف الطباع ولكنّه انحطّ لمّا دخلت فيه الرغبة فنسي الشعراء شرفهم الأول وبهذا فسدت نفوسهم بالتكسب به فلطخت هاتيك الرغبة كثيرا من الآثار الادبية بالكذب الفاحش وانتجت في كل مكان آلاف المؤلفات المرذولة. وبذلك صار البيان تجارة، والكلام سلعة معروضة للبيع. ويصيح «بوالو» قائلا: «لاتهتكوا شرفكم برذيلة كهاته ذاهبة فى السقوط – واذا كان حبّكم للذهب هو وحده الذى يغريكم بالأدب فلتجلوا عن أراضيه وأوديته لان الادب لا يوجد على شاطئه الغنى والثروة ولأن أبولون (1) لا يجود على أتباعه من أكابر العلماء والمؤلفين والقواد إلا بالصيت الذّائع وأكاليل الغار التي لا تذبل» (الابيات 133 – 178).

اما ابن رشيق فهو يشن الغارة على الذين تكسّبوا بالشعر فيقول (العمدة ص: 50) «كان الشاعر في مبتدإ الأمر أرفع منزلة من الخطيب... فلما تكسّبوا بـه وجعلوه طعمة وتولّوْا به الاعراض وتناولوها صارت الخطابة فوقه. وعلى هذا المنهاج كانوا حتى فشت فيهم الضراعة وتطمّعوا أموال النـاس وجشعوا فخشعوا، واطمأنت بهم دار الذلة الامن وقر نفسه وقارها، وعرف لها مقدارها».

هذا ولو ذهبنا نقارن بين هذين النّاقدين فيما اتفق من آرائهما لطال بنا ذلك ولكانت النتيجة التي نخرج بها بعد هذا لا تختلف عن النتيجة

1) أبولو أو أبولون: هو اله الشعر والفنون عند الاغريـق.

التي انتهينا إليها وهي أنّ النقد في الأدبين العربي والفرنسي لاتختلف مذاهبه في الأصول والأسس وإن اختلفت فروعه وتفاصيله. وهذا حق خصوصا في مناهج النقد القديمة. وليس ذلك بعجيب فإنّ من صفات الأدب العالي ان يكون ما يُستحسن منه عند أمة هو نفس ما يستحسن عند أمة أخرى. وتلك هي سمة العالَميّة التي تلتقي فيها كل الآداب الرفيعة الحيّـــة.

مقارنة بين الجاحظ وفولتير

مهما قرأت ترجمة حياة «فولتير» الأخطر ببالي الجاحظ، ولا قرأت ترجمة حياة «الجاحظ» الا خطر ببالي «فولتير» ذلك أنه يوجد من وجوه التشابه بين هذين الرجلين في حياتهما وفي مناحي تفكيرهما ما يدعو الى التأمل ويسترعي النظر. واذا اعتبرنا الفارق الزمني والجنسي، والحالة الخاصة بعصر كل من الرجلين وبيئتهما ظهر لنا تشابههما في سائر النواحي الأخرى.

فالجاحظ قد أصابه من جراء اضطراب الحالة السياسية وفسادها في عصره مشابه مماً أصاب «فولتير». فاذا كان «فولتير» قد سجن مرتين في سجن «الباستيل» وأقام أغلب حياته طريد السياسة على الحدود أو منتقلا في البلاد الأجنبية، فإن الجاحظ قد سجن وعرف خشونة قيود الحديد في عصر المتوكل إبّان الاضطرابات السياسية في العهد العباسي. ولولا براعته في التخلص من المآزق وفصاحة لسانه لكان ثاني اثنين اذ هما في التنور على حد تعبيره (1).

ثم إنّ الجاحظ كان «كفولتير» منحدرا من صلب الشعب، فكما كان «فولتير» ابن أحد صغار المتوظفين ونشأ فقيرا ولم يتحصل على الثروة والمجد والمكانة الاجتماعية الا بنجاحه في عالم الأدب، كذلك كان

1) اتصل الجاحظ بالوزير محمد بن عبد الملك الزيات، فلما قبض على ابن زيات في خلافة المتوكل هرب الجاحظ وجيىء به مقيّدا بالحديد إلى القاضي احمد بن ابي دؤاد بعد قتل ابن الزيات وتعذيبه في التنوّر، ودارت بين الجاحظ والقاضي محاورة احسن الجاحظ فيها الاعتذار وطلب العفو. فقال له القاضي قبّحك الله ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام. ثم امر بفك قيوده وصلحت الحال بينهما. —

الجاحظ من أسرة شعبية عربية تنتسب الى كنانة إما نسبا صريحا على بعض الأقوال وإما بالولاء على بعض الأقوال الأخرى. ونشأ الجاحظ بالبصرة فقيرا، فقد روي أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان ثم انصرف الى العلم والأدب وانتهى أمره فيهما بمثل ما انتهى امر «فولتير». فلقد كانت « فرناي FERNEY » وهي مقرّ الكاتب الفيلسوف مثابة للملوك والعلية والامراء. وكانت ملوك أوروبا تراسله. وكان الشعب يلقبه بالملك «فولتير». أما الجاحظ فقد حظي عند الناس مثل هذه الحظوة. قال سلام ابن زيد أحد علماء الاندلس: كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء الجاحظ. فخرجت لا أعرج على شيء حتى قصدته وأقمت عليه عشرين سنة. وفي ابن خلكان أنَّ بعض البرامكة مرّ بالبصرة والجاحظ عليل فذهب ليراه، فلمّا قرع الباب خرجت خادم فقالت: من أنت؟ فقال الجاحظ: «هذا رجل قد اجتاز بالبصرة وسمع بعلتي فقال أحبّ أن أراه قبل موته فأقول قد رأيت الجاحظ».

ولقد بلغ الجاحظ من جلالة القدر ان يرى نفسه في آخر أيامه أعظم من أن ينقطع الى الخلفاء وكان الوزراء والحجاب عرفوا منه ذلك، فقد كتب اليه الفتح بن خاقان وزير المتوكل: «ان أمير المؤمنين يجد بك ويهش عند ذكرك ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه».

وقد عاش «فولتير» في أزهر عصور الأدب وأحفلها بالروائع والآيات، فالقرن الثامن عشر قد ورث أدب القرن السابع عشر الضخم ونضجت فيه مختلف الثقافات التي اقتبست ـ ابتداء من عصر الإحياء في القرن السادس عشر من آثار اليونانين واللاتينين كما أن الشعب الفرنسي تعرف الى ألوان الثقافات كامل القرن الثامن عشر ـ وهذا عينه ما اتفق للجاحظ فثقافة القرن الثالث الهجري كانت أشبه شيء بالنهر العظيم

الذي انصبت فيه جداول مختلفة من الثقافات الأجنبية من فارسية وهندية ويونانية ويهودية ونصرانية زيادة على الثقافة العربية الخالصة ـ ولقد امتزجت في عصره امتزاجا والتقت كلها في العراق ـ وقد عمر الجاحظ طويلا وتأثر بمختلف هاته الثقافات، ومرت عليه أحوال وحوادث: فولد في خلافة المهدي ومات في خلافة المهتدي وما بين هذين أحد عشر خليفة فتاريخ الجاحظ تاريخ قرن كامل هو زهرة الدولة العباسية. وقل أن تعلّم أحد من هذا العصر وأحداثه ما تعلّم الجاحظ.

وفولتير قد ملأ قرنه الثامن عشر مؤلفات ورسائل ولم ينقطع عن الكتابة الى أواخر أيامه. وقد تناول كل الفنون الكتابية وشارك في كل الحركات الفكرية.

والجاحظ كذلك كان من المؤلفين المكثرين، فقد أغنى المكتبة العربية بتآليف بلغت ثلاثمائة وستين مؤلفا رآها سبط بن الجوزي المتوفى سنة 654 هـ في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد. وقد كتب الجاحظ في كل فن وطرق كل موضوع فألف في موضوعات سياسية وتاريخية وكلامية، وألف في الأخلاق الشائعة في عصره وفي طبقات الناس، وألّف في الحيوان والنبات. وفي كل هذه الكتب مزج العلم بالأدب، والدين بالفلسفة، والمرويات بالمشاهدات. وإذا كان فولتير قد اشتغل بالتجارب العلمية زمنا طويلا متابعة لتيار عصره، فإن الجاحظ يحدّثنا في كتاب «الحيوان» أنه كان يجري التجارب على الحيوانات كما جرّب زرع شجر «الأراك».

وكما اشتبهت حياة الرجلين فكذلك اشتبهت أخلاقهما، ففولتير كان محبا للمال وكان يقضي كثيرا من الوقت في ضياعه يديرها مع عماله، ويقف على الكبير والصغير من أحوالها، ويتولى شؤونه المالية بنفسه ويكثر من اللجاجة والخصام مع من له علاقة بتلك الشؤون، والجاحظ

كذلك لا يهمل ناحية المال فقد كانت له ضيعة تنسب اليه وقد اقتنى مالا وبيتا يجرّب فيه شجر الاراك وكان يعنى بأبوابه حتى يختار لتركيبها أمهر النجارين ويقتني من العبيد ما سبق ان خدم الملوك وينتقل في البلاد فيعيش زمنا في بغداد ويرحل الي دمشق وأنطاكية، واذا كان فولتير كثيرا ما يحرج أهل «جنيف» المتزمتين بتحلله من قيود المحافظة وحبه اللهو والمرح وإقامة الحفلات، فالجاحظ لم يشأ ان يتخذ له زوجة بل كان يتسرى بما تطيب له نفسه من الجواري والقينات يمسكها ما أحبّها، ثم يسرحها ويجيء بغيرها. ولم يعرف انه ولد له وَلَد أو أعقب ذرية مدى حياته. وقد نقل ياقوت في معجم الأدباء جملة قالها الجاحظ يشتم منها رائحة الإباحية لانستطيع نقلها هنا (انظر ياقوت ج 16 - ص 85 طبعة رفاعى). وكان كل من الرجلين يعيش عيشا مترفا، فنعرف ممّا كتبته أديبة كانت أقامت مدة عند فولتير ما في بيته من الأواني والتحف والصور الثمينة والكتب وآلات التجارب كما وصفت بدقة أناقة ملبسه ونفاسة ماعون أكله. والجاحظ يحدثنا عن حياته المترفة فيقول مجيبا من سأله عن حاله: «حالي ان الوزير يتكلم برأيي، وينفذ أمري، ويواتر الخليفة الصلات الي، وآكل من لحم الطير أسمنها وألبس من الألباس ألينها وأجلس على ألين الطبري وأتكئ على هذا الريش...».

فإذا تركنا ناحية التشابه في ظروف الحياة والمزاج الخلقي، كان مجال المقارنة ميسورا في النواحي الفكرية وفي طرائق البيان والكتابة. فمن خصائص الجاحظ في أسلوبه الدّعابة والفكاهة والسخرية والميل إلى الدّعابة والنكتة وخفة الرّوح والحيوية، وهو من ناحية أخرى صاحب استقلال في الفكر وحريّة في النظر واعتماد على المعقول والواقع. وهذه هي الخصائص الفكرية التي يمتاز بها فولتير ويعرفها له كل من قرأ آثاره. ولقد كان كل من هذين الكاتبين قوي الطبع، فيّاض القريحة، نسيج

وحده في الوضوح والبيان والسّلاسة والسهولة وبروز الشخصية . وكان كل منهما ملابسا للناس على اختلاف طبقاتهم، فاهما لروح عصره كل الفهم مصورا لأحواله معبّرا عن ميوله وتياراته ، وكان فولتير معروفا بجرأته في الكلام على الأديان وعدم احترامه لأي نظام مقرر، ينقد كل شيء ويتناول كل شيء بالسخر والدعابة هاجم رجال الكنيسة هجوما عنيفا، وعاب عليهم عدم تسامحهم،وقسوتهم في إيصال الاذى لمخالفيهم في الرأي،ولم يسلم الجاحظ كذلك من اتهام في دينه، فكان عند كثير من معاصريه معدودا في الزنادقة، وقد رماه ابن قتيبة بالكيد للاسلام والمسلمين كما هجاه الجماز فنسبه الى الكفر.

والصفة الغالبة على أدب الجاحظ والمميزة لكتبه هي الاعتماد على العقل والاعتزاز به حتى قيل كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا . وهاته الصفة عينها هي الغالبة على أدب فولتير ، وقد قال كل منهما الشعر ولم يأت فيه بطائل، فقد قال فولتير شعرا كثيرا ونظم في كل الفنون الشعرية حتى الملاحم ولكن شعره لا يقرأ اليوم وليس له من المكانة ما لنثره – وهو شعر يغلب عليه البهرج أكثر مما يغلب عليه تحليل العواطف ودراسة الطباع . وقد قالوا في شعر الجاحظ إنه شعر كتّاب يمتاز بحسن الصنعة واختيار الألفاظ وانسجام النظم أكثـر مما يمتاز بحرارة العاطفة وقوة الخيال وظهور الشاعرية – ثم إنّ كلا من الأديبين العظيمين قد أثر في عصره أبلغ التأثير وملأ كل منهما القرن الذي عاش فيه باسمه وشهرته ، وشغل معاصريه بآثاره وأفكاره وخصوماته ، وسيطر على عقـول الناس سيطرةَ الملك الجبار لا ببلديهما فحسب بل في العالم الذي يقرأ لغتهما ، ناهيك بانتشار العربية في الممالك الإسلامية وشيوع الفرنسية في معظم البلاد الأوروبيّة في ذلك العصر.

فلو جاز لنا ان نأخذ بالعقيدة الهندية عن تناسخ الأرواح لقلنا أن

روح الجاحظ في القرن التاسع المسيحي حلت في روح فولتير في القرن الثامن عشر.

مميزات الشعر المعاصر

ما هو المراد بالشعر المعاصر؟

الذي يتبادر للذهن من هذه العبارة هو الحاصل من مقابلها أعني الشعر التقليدي القديم. وبناء على هذا يحسن بنا ان نحدد سمات ومميزات الشعر التقليدي ليتّضح لنا المراد بالشعر الحديث أو المعاصر.

وقد اهتدى النقّاد الأقدمون في مسألة القديم والحديث إلى القول الفصل حين انتهوا الى تقرير هذا المبدإ وهو أن القديم كان بالنسبة لعصره مُحْدثا. وأن ما ننعته اليوم بالحديث سوف يصبح بدوره قديما بمرور الزّمان. كما أنهم انتهوا الى هذا المبدإ الثاني وهو أن الإجادة ليست وقفا على المتقدم ولا التقصير مقصورا على المتأخر في الزمن كما بيّن ذلك ابن قتيبة في مقدمة كتابه «الشعر والشعراء».

فمسألة القديم والمعاصر هي إذن مسألة نسبية، فمتى حدّدنا معالم هذا القديم وعرّفنا سماته وملامحه أمكننا ان نطلق نعت القديم حتى على بعض شعرائنا المعاصرين إذا كان ذلك الشعر يحمل نفس سمات الشعر القديم وعلاماته، وكذلك القول بالنسبة لشعر الأقدمين، فإنه متى ثبت لمقاييس الشعر الحديث وحمل مميّزات الشعر الخالد فإننا لا نتردد في نعته بالحديث ونعتبر صاحبه ممن سبقوا عصرهم ونضمّ شعره لنماذج الشعر المعاصر المختارة.

---

* محاضرة في ملتقى هواة الادب المنعقد في رادس في اوت 1963 وقد اضيفت اليها معلومات حديثة بعد هذا التاريخ.

فما هي مميِّزات الشعر التقليدي القديم وما هو الإطار الذي يبدو لنا من خلاله؟

كل حديث على الشعر يجب أن يشتمل الكلام على اللفظ والمعنى أو كما يقول النّقاد اليوم الشكل والمحتوى أو الصورة والمضمون.

ومحتوى الشعر القديم هو أغراضه او فنونه التى كادوا يحصرونها في المدح والهجاء والفخر والرثاء والغزل والوصف والحماسة.

وقد حدّدوا لكل فنّ من الفنون رسومه وقواعده، وذكروا شروطه وأهدافه، وما ينبغي للشاعر أن يسلكه من الطرق والأساليب متى مدح أو رثى، ومتى وصف او تغزّل.

أما الشكل الذي يكون عليه المحتوى فأهم ما يميزه المكان البارز الذي تحتلّه المسائل البلاغية كالاستعارة والمجاز والكناية والتشبيه وأنواع البديع الكثيرة ثم تأتي مسألة الوزن والقافية والعناية بأنواع البهرج اللفظي كالتّصريع والترصيع والمطابقة وغير ذلك من فنون الصناعة اللفظية التي أفاض في الحديث عنها وتبويبها النقاد القدامى مثل أبي هلال العسكري وقدامة وابن رشيق وغيرهم. ولعل تقصي هاته الفنون البلاغية في الشعر وتصنيفها والاتيان بالشواهد عليها هو كل ما وصل إليه النّقد الأدبي عندهم... ومن سمات الشعر القديم وحدة البيت في القصيدة العربية، فإن الشاعر كان ينظم قصيده وكل بيت فيه يكوّن معنى تاما مستقلا بنفسه قد لا تربطه بالبيت بعده أو قبله آية رابطة معنوية حتى إنه ليمكن أن تقدّم بعض الابيات أو تؤخر أو يبدل ترتيبها دون أن يظهر على القصيدة اختلال أو تشويش في الأفكار، ويضاف الى وحدة البيت وحدة أخرى هي وحدة الوزن والقافية، فالشاعر القديم يحرص كلَّ الحرص على أن تكون القافيةُ واحدةً مهما طالت القصيدة ومهما تنوعت أغراضها وكأنه كان يعتزّ بإظهار مقدرته على امتلاك أعنّة القوافي والدلالة على وفرة محصوله من مفردات ليعترف له بالأستاذية او ليكاثر به منافسيه.

وقد ظل الشعر العربي محافظا على أوزانه التقليدية، محصورا في إطارها طوال القرون لايفكر في تجاوزها أو تحطيمها رغم ما ظهر من شعراء ذوي مزاج ثوري ونزعات ساخرة بطريقة الجاهلية في الوقوف على الأطلال وبكاء الديار، وذلك مثل أبي نواس وأبي العلاء،أو ذوي ميول تجديدية في التعبير مثل أبي تمّام الذي عابوا عليه الخروج عن عمود الشعر العربي ويعنون بذلك ابتكار التعابير والاستعارات التي لم يعرفها العرب . والمحاولات الأولى للخروج عن الأوزان التقليدية نجدها عند الأندلسيين الذين لم يعمدوا إليها إلاّ لتيسير التغني بها والتي قلدهم فيها شعراء العصر الوسيط الاروبيون في أشعارهم الغنائية (التروبادور).

ومن سمات الشعر القديم الميل للمبالغة والغلوّ والإغراق في المعاني على حساب الحقيقة والواقع – وكانوا يعدّون ذلك من التخيّل الذي يجوز فيه الكذب وادّعاء المحال – ومن قولهم في هذا المعنى: أعذب الشعر أكذبه – ونضيف الى تلك السمات تفضيلهم الشعر الجزل الفخم العبارة على الشعر الذي يتصف بالاتّزان والاعتدال في استعمال الألفاظ المقعقعة المصلصلة.

هذه بعض السمات التي يعرف بها الشعر القديم او الكلاسيكي وعلى ضوئها يمكن أن نقول إنّ الشعر المعاصر هو ردّ فعل يقوم به أي شاعر قصد الخروج من الإطار القديم للشعر.

وقد رأينا في هاته السنوات الأخيرة ردود فعل كثيرة تتمثل في حركات ومحاولات للتجديد في الشكل والمضمون للشعر العربي أسوة بما وقع في الآداب العالمية . ويظهر أنّ أدب كل أمة متحضرة لا بدّ ان يمرّ بأدوار حتمية يتجاوز فيها طوره الكلاسيكي إلى أطوار أخرى سبقتها كان لابد أن يمرّ بها أدب أيّ أمة حين تدعو الى ذلك دواعٍ حضارية أو اجتماعية وحتى اقتصادية . فلو استعرضنا مثلا الرّومانسية

في الأَدب والفن والموسيقى عند الغربيين لرأينا ظهورها شاملا عندهم منذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، بينما هي لم تظهر في الأَدب العربي إلّا في أوائل هذا القرن العشرين ثم عقبتها فترات أخرى وقع العدول فيها عن الرّومانسية الى حركات تجديدية تناسب تطور الأَفكار.

وقبل أن نضع الشعر المعاصر في موضعه من ديوان الشعر العربي خلال العصور يجدر بنا أن نتعرّف سمات وعلامات هذا الشعر حتى نستطيع أن نقول عن الأَثر الادبي «هذا شعر معاصر» كما نقول عن قصيدة نظمت على الطريقة القديمة «هذا من الشعر القديم» ولو كان ناظمها من المعاصرين لنا.

سمات الشعر المعاصر

سمات الشعر المعاصر نجملها — كما فعلنا في الشعر القديم — بالحديث عن المضمون أو المحتوى ثم نتكلم على الشكل أو الصورة.

وأول ما يشترط في المضمون للقصيدة الحديثة هو أن تكون تجربة شعرية يعيشها الشاعر ويؤديها تأدية حية صادقة قوية سواء أكانت هذه التجربة وجدانية باطنية أم انفعالية منبثقة من مشهد طبيعي أم هي إحساس استولى على الشاعر عند اتصاله بالعالم الخارجي. وهذا نموذج لتجربة شعرية للشاعر جعفر ماجد اتصل فيها العالَم الخارجي وهو البحر بعالَم الشاعر الداخلي فمزج بين مايراه وما يشعر به داخل نفسه :

زُرقة في الماء تغري   باندفاعٍ من يراها
فوقها الأمواج تجري   ثم تفنى في مداها
ليتني قضّيت عمري   ضائعا في منتهاها
فوقها كالنُّور يسري   دونما أدري اتجاها
جامعا مدا لجَزْرٍ   مازجا نفسي بما ها

وهذا نموذج آخر لتجربة شعرية هادئة للشاعر اللبناني «إلياس أبي شبكة» عاشها في وقفة أمام الطبيعة وقت الغروب، ولعله كان يجد في نفسه أصداء من وقفة مماثلة للشاعر الرّومانسي «لامرتين».

اسجدي لله يا نفسي فقد وافى المغيبْ
واستريحي من عناء الفكر، فالفكر رهيبْ
واستري الآلام حينا، بابتسامات الحبيب
فغدًا ترجع آلامك، والآتي قريب

اسجدي لله يا نفسي فقد وافي المغيب

وهذا نموذج ثالث لتجربة شعرية للشابي نحسّ فيها انفعال نفس الشاعر عند اتصالها بالعالَم الخارجي، ثم امتزاج صور هذا العالم الخارجي بعواطف نفسه فيوفق في أداء التجربة أداء صادقا مؤثرا كلّه جمال وبساطة :

الى عــازف أعمــى

أدركت فجر الحياة أعمى   وكنتَ لا تعرف الظـلام(1)
فاطبقت حولك الديـاجي   وغام من فوقك الغمـام
وعشت في وحدة تقاســي   خــواطـرا كلّها ضــرام
وغربة ما بها رفيـــق   وظلمة ما لها ختـــام
تشقّ فيه الوجـود فــردا   قد عضّك الفقــز والسقام
وطاردت نفسَك المآســي   وفرّ من قلبـك السّلام

* * *

هوّن على قلبك المغنّـــى   إن كنت لا تبصر النجــوم
ولاترى الغاب وهو يلغـــو   وفوقه تخطر الغيــــوم
ولاترى الجدول المغنّـــي   وحوله يرقص النسيــــم
فكلنا بائس جديـــــر   برأفة الخالق العظيــــم
وكلنا في الحياة أعمـــى   يسوقه زعزع عقيـــــم
وحوله تزعق المنايـــــا   كأنها جِنّة الجحيــــم

فأول شرط يجب أن يتوفر في الشعر المعاصر هو أن تكون القصيدة منبعثة من تجربة أصيلة عاشها الشاعر بشعوره وحواسه، وامتزج فيها عالَمه الداخلي بالعالم الخارجي في نشوة وذهول واستغراق.

---

1) اي جئت الى هاته الدنيا بعد ان كنت في عالم النور.

والشرط الثاني الذي يجب أن يتوفّر في الشعر المعاصر هو أن تكون مادة التجربة متنوعة من الشعور والعاطفة أي انفعالات النفس المختلفة أو من الفكر ومن أهم انفعالات النفس التي تكوّن مادة التجربة: السرور والحزن والعَجب والإعجاب، والإطمئنان والقلق، والأمل واليأس وغيرها – وكل عمل أدبي لابد أن يكون الدافع إليه شعورا قويا أو عاطفة حادة او إحساسا مسيطرا. فاذا خلا العمل الأدبي من الشعور والإحساس أو كانت العاطفة فيه فاترة والانفعال ضعيفا كان هذا العمل الأدبي خاويا لاروح فيه.

لقد تناول شعورَ القلق شعراء عديدون من نواحٍ مختلفة. تناولته فدوى طوقان لتعبر به عن الحيرة فقالت في قصيدها «أشواق حائرة»:

نفسي موزّعة معذبـــــة ... بحنينها بغموض لهفتهـــا
شوق الى المجهول يدفعهـــا ... متقحما جدران عزلتهـــا
شوق الى ما لست أفهمـــه ... يدعو بها في صمت وحدتها
أهي الطبيعة صاح هاتفهـــا ... أهي الحياة تهيب بابنتهـــا
ماذا أحسّ؟ شعور تائهـــة ... عن نفسها تشقى بحيرتهـــا

ويعبر عمر أبو ريشة عن نفس الشعور، لكن حيرته ليست محل تساؤل لأنه قد اقتنع بها وقد وجدت لها في نفسه قرارا – يقول في قصيدة «قلق» مخاطبا نفسه:

طال انتظارك فاعْدُلِــــي ... عني وأبقي الهمّ لـــــي
ما نحن أولُ من بنــــى ... وبناؤه لم يكمـــــل
حسبي وحسبك أننــــا ... كنّـا ولم نتبـــدل
كم سرتُ مشدود القـــوى ... شوقا لذاك المنهـــــل
وسعيت حتى هدنـــــي ... المسعى وأدمى أرجلــــي
لا حاضري يفترّ بالبشـرى ولا مستقبلـــــي
واشقــوةَ الأيــام كـــم ... قصت جناحَـيْ بلبـــل

أختاه سُلّي الحِلْم من جفنيك لا تتأمّلي

أنا في شجيّ العمر تحملني يد الزّمن الخلي

أما خليل مطران فإنه في قصيدة «المساء» الشهيرة يمزج الشعور ببعض الحقائق النفسية وبمشاهد الطبيعة ومظاهر الوجود – ومن خلال قصيده نفهم انه كان يكابد داء ألمّ به في الوقت الذي كان يكابد داءً للحب. فاجتمع عليه الداءان هذا ينهك جسمه، وذاك ينهش قلبه:

داء ألمّ حسبتُ فيه شفائي | من صَبْوتي فتضاعفت بُرَحائي

يا لَلضعيفيْن استبدّا بي وما | في الضيم مثلُ تحكم الضُّعفاء

قلب أذابته الصبابة والجوى | وغلالة رقت من الادواء

والرّوح بينهما نسيم تنهد | في حَالي التصويب والصّعداء

وينتقل الشاعر فيذكر أثر مشاهد الطبيعة فيه، ويمزج مشاعره بمرائيها فيقول:

متفرّد بصبابتي متفرّد | بكآبتي، متفرد بعنائي

شاكٍ الى البحر اضطراب خواطري فيجيبني برياحه الهوجاء

ثاوٍ على صخر أصمّ وليت لي | قلبا كهذي الصخرة الصماء

ينتابها موج كموج مكارهي | ويفُتّها كالسقم في أعضائي

الى آخر ما جاء في هذه القصيدة الفذة من تعبير عن ألمه من داء قلبه، وداء جسمه، ومن جمع بين ذكر الحبيبة والمرض، وأشياء الطبيعة كالبحر وشاطئه الصخري، وموجه العتي والنهار المودّع والسحاب الدامي بحمرة الشفق، والشمس المارة خلال غمامتين تتقطران كالدمعة الحمراء ويختم قائلا:

فكأن آخر دمعة للكون قد | مزجت بآخر أدمعي لرثائي

وكأنني آنست يومي زائلا | فرأيت في المرآة كيف مسائي

فمن هذه النماذج نرى تدفقَ الشعور وصدقَه وقوته، فليس هو من نوع الشعور المزيف بالصنعة والبهرج أو الوعورة اللغوية أو الشعوذة

اللفظية. وهكذا يظل صدق الشعور وقوته أول سمة يتسم بها هذا الشعر لكي يجد السبيل الى قلوبنا. أما الذي يتحدث عن الحب مثلا ولم يجربه، وعن الحيرة والقلق ولم يمربهما، ويسجل مشهدا مؤلما لم يهزّ قلبه فسيظل شعره متهافتا واهنا تبدو عليه مسحة الشحوب والاضطراب.

وكما تكون مادة القصيدة قائمة على الانفعالات والشعور تكون عند بعض الشعراء قائمة على عنصر الفكر فتحوي فكرة يتابعها الشاعر من البداية الى النهاية او تشتمل على مجموعة أفكار أو حقائق فلسفية يمزجها بشيء من أحاسيسه ورؤاه ومشاعره. ومتى كانت القصيدة مجردة من أحاسيس الشاعر ابتعدت عن الشعر في مفهومه الصحيح وكانت جديرة ان تسمى فكرا منظوما أو نَظْما عقليا كما نلمح ذلك في شعر عبد الرحمان شكري وبعض شعر العقاد، أو الصادق مازيغ من الشعراء التونسيين. وهناك من الشعر الفكري ما يصبح أن نطلق عليه كلمة النثر المنظوم. ونجد هذا النوع من أغلب شعر الشعراء ذوي النزعة العلمية الفلسفية كالزّهاوي والرّصافي.

فبهذا التحديد للشعر الذي يمتزج بالوجدان أو الشعور ويعتمد أول ما يعتمد على الفكر يمكن أن ندخل نماذج من الشعر القديم لا ينكرها الشعر الحديث مثل قصيدة أبي العلاء التي طالعها: «غير مجد في ملتي واعتقادي» فإن الفكرة فيها تدور على مأساة الإنسانية أمام الموت. ويدخل فيها ألم المعري من الحياة وتمنّي زوالها واستواء الفرح والحزن فيها:

وشبيه صوتُ النّعي إذا قيس بصوت البشير في كل نـــاد
أبكَتْ تلكمُ الحمامة أم غنّت على فرع غصنها الميّـــاد

ومن نماذج الشعر الفكري الممزوج بالمشاعر قصيدة «ايليا أبي ماضي» (الطلاسم) وهي قصيدة مطوّلة تتناول ألغاز الوجود، وفيها تلك التساؤلات الحائرة، وفيها استعراض لمشاكل فلسفية، ومسائل غيبيّة، وحقائق عارية غير أنّ الشاعر أدخل فيها عنصرا عاطفيًا وهو حيرته وعجزه عن فهم

طلاسم الوجود واستشفاف ما وراء الغيب :

جئت لا أعلم من أين ، ولكنّي أتيت
ولقد أبصرت قدّامي طريقا فمشيت
وسأبقى سائرا – إن شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئت؟ – كيف أبصرت طريقي؟ ... لست أدري.

ومن طراز هذا الشعر الفكري قصيدة ميخائيل نعيمة «من أنتِ يا نفسي» :

إن رأيتِ البحرَ يَطْغَى الموج فيه ويثورْ
أو سمعتِ البحر يبكي عند أقدام الصخور
ترقبي الموج – الى أن يحبس الموج هديره
وتناجي البحر. حتى يسمع البحر زفيره
راجعا منك إليه
هل من الأمواج جئت؟

ويظل يتساءل في المقاطع التالية : هل هي انفصلت عن البرق أو انحدرت من الرعد أو ولدت من الريح أو انبثقت من الفجر أو نزلت من الشمس... إلى أن يختمها مؤكدا أنها من كل تلك العناصر وأنها فيض من الله . وتلك هي عقيدة ميخائيل نعيمة في وحدة الوجود . وقد جمع فيها بين الحقائق الذهنية وبين عمق الفكرة وصدق الشعور.

ومن الباحثين في الشعر المعاصر من يجعل الحد بين الشعر القديم والشعر الحديث ما يسميه بالتمييز بين الرؤية والرؤيا.

يقول ماجد فخري في فصل بالعدد الثالث من مجلة «شعر» البيروتية :

لعل في التّمييز بين الرؤية والرؤيا مفتاح السرّ. الذي نبحث عنه. فالشعر الذي يقتصر على الوصف التصويري للطبيعة أي على سرد الأحداث يكاد لايعدو نطاق الرؤية فكان أحط أصناف الشعر لأنه يقتصر على استعراض للجزئيات المرئية ، وهي مبذولة لكل ذي باصرة – فأى

فضل لاشاعر في التنبيه إليها؟ وليس أحط من هذا الصنف من الشعر سوى الشعر اللّفظي الذي يسرف صاحبه في الحذلقة اللفظية.

فالشاعر جعفر ماجد يتراءى لنا في هذه الأبيات عائشا في حلم او في عـالم خيالـي هـو عالـم الشـاعر المثالـي:

أنا في الليل أفترش الخيالا وأغزل من أشعته ظـلالا
وأملأ من نجوم الأفق جيبي وأركب عند مرفئه الهلالا
فأقلع مثل ملاح غريـب مدى الأيام يحترف الضلالا

وهو الذي يقول في قصيدة أخرى:

أحيـا على حُلم لكَم يغفو به نور القمـر
الليل واحته وأهداب الكواكب والسّهـر
لكنّه أبدا يطيـر مهفهفـا في اللاّمقَـر.

ومن قضايا الشعر المعاصر مسألة الالتزام وهي مسألة كثر الحديث عنها في المجلات والصحف وتعصب لها بعضهم إلى درجة إخراج الشاعر من حظيرة الأدب إذا لم يكن له موقف من مشاكل عصره وبلاده ومشاركة في علاجها. وأن الادب إذا لم يكن ملتزما بمعالجة قضية ما فلا فائدة منه ولاخير في إنتاجه . والالتزام عند المعاصرين يبدو لنا ذا وجوه متعددة . فهناك الالتزام الذي ينحو ناحية انسانية والذي يخدم قضايا اجتماعية أو أخلاقية وهناك من يستهدف الوجهة القومية أو يبشّر بمبادئ ومذاهب معينة، فالشاعر العراقي «بدر شاكر السيّاب» مثلا يغلب على شعره الاتجاه الانساني. ففي مطولة «المومس العمياء» وفي قصيدته «حفّار القبور» و «الأسلحة والأطفال» نراه يظهر عطفه على الضعفاء من ضحايا طغيان المجتمع ، كما نراه يدعو للسلام ويحمل على تجار الأسلحة المثيرين للحروب.

ونذكر من بين الشّعراء الملتزمين الشاعر السوري «سليمان العيسى» وهو أغزر الشعراء إنتاجا في الاتجاه القومي العربي. وفي شعره تنعكس آلام البلاد

العربية و ما تلقى من حكامها وملوكها المترفين ولا نبالغ اذا قلنا ان مجموعة دواوينه هي عبارة عن صرخات مدوية تدعو للثورة على الأوضاع البالية وتدعو الى إصلاح تلك الأوضاع الفاسدة.

و يعد «نزار قباني» من ألمع الشعراء الملتزمين خصوصا بعد النكسة، فقصائده القديمة «خبز وحشيش وقمر» و«حُبٌّ وبترول» وقصائده الجديدة «الاستجواب» و «الممثلون» وغيرها فيها نقد لاذع للمجتمع الشرقي وتشنيع شديد بتخلّفه الذّهني وتخدّر أعصابه.

وهذا نموذج من قصيدة «حب و بترول» التي جاء فيها قوله مخطبا أحد الأمراء العرب ممّن تركع على قدميه الغواني:

تمرّغ – يا أمير النفط – فوق وُحول لذّاتك
كممسحة تمرغ في ضلالاتك
لك البترول فاعصره على قدمي عشيقاتك
كهوف الليل في باريس قد قتلت مُروءاتك
فبعتَ القدس، بعتَ اللّه بعتَ رماد أمواتك.

فإذا وجّهنا النظر الى شعرائنا التونسيين في هاته الناحية وجدنا بينهم جماعة أخذت تتبنّى القضايا الاجتماعية وتعمل على نشر الوعي القومي نذكر منهم محمد العروسي المطوي، وأحمد اللغماني، و محمد العربي صمادح، و نور الدين صمود، والميداني بن صالح، وغيرهم ممن تعرضنا لآثارهم في أحاديثنا المذاعة عن اتجاهات الشعر التونسي المعاصر فمثلا نور الدين صمّود في قصيدة (الأصنام والسّنابل) يهز مشاعر الكثيرين ويثير من حوله ضجة غنمت منها حركة التّوعية الغُنم الوفير:

لا المجد للمساجدْ ولا لكل عابدْ
فالمجد للمصانعْ والمجد مجد العملهْ
إذا زرعت سنبلهْ حطمت ألف مقصلهْ

ويُغنّي الميداني بن صالح لشعبه أغاني المحبّة والخلود هكذا:

أنا إن غنّيت للعمّال نغمه
وأنرت الدرب للروّاد شمعه
وسَقيْتُ الأرض دمعة إثر دمعه
لأروّي التُّرب والحَبّ مَحَبّه
فيعمُّ الخير شعبي والأحبة، وتعودْ
تونس الخضراء عزما ونضالا وصمود.

هذه باختصار – هي المميزات الغالبة على الشعر الحديث – وهي كما ترى تُمثِّل مفاهيمَ جديدة للشِّعر، وتُقيم مقاييس مغايرة للمألوف في تقييم الأثر الأدبي وهي مقاييس لا تجد فيها من المصطلحات القديمة والقوانين التي تقاتل عليها نقدة الأدب الأقدمون. ولو أننا طبقنا هاته المقاييس والمفاهيم على الشعر التقليدي القديم أو ما يجري مجراه لأخرجنا منه الكثير عن مفهوم الشعر الحق. ولكنه ليس معنى ذلك أن ذلك الشعر قد نعدم في جانب كثير منه التجربة الذاتية والشعور الصادق والفكرة الفلسفية المتماسكة كما لا نعدم فيه اتجاهات إنسانية واضحة وجوانب فنية لا غبار عليها.

بقي علينا أن نتحدث بعد هذا عن الصفات التي يجب أن تتّصف بها طريقة الأداء أو ما يُسمَّى بالشكل.

نقول إنَّ أوَّل هاته الصفات هي الوحدة العضوية للقصيدة بحيث تكون التجربة الشعرية مترابطة الألفاظ والصور والتنغيم، معبرة عمّا في القصيدة من انفعالات وعواطف وأفكار بصورة يتجلى فيها التوازن والانسجام بين الأجزاء – وهذا ما لم يتوفر في الشعر القديم الذي كان فقدان الوحدة العضوية فيه من أظهر عيوبه كما كان التفاوت بين أبيات القصيدة الواحدة جودة ورداءة، أو قوّة وضعفا من أهمّ ما يؤخذ عليه.

فالقصيدة ذات الوحدة العضوية أشبه ما تكون بالقطعة الدرامية ذات البداية والذّروة والنهاية، والسّياق فيها مطّرد متسلسل بحيث لا تستطيع أن تحذف منها بيتا أو تزيد فيها آخر أو تقدمه من مكانه أو تؤخره عن موضعه. كما أنّ الصور يجب أن تكون مترابطة متلاحقة.

وبعد الوحدة والتوازن والانسجام في كامل القصيدة تأتي مسألة الألفاظ التي أصبحت في الشعر المعاصر عنوان البراعة والتفوق. إنّ الشاعر الحديث لم يعد يرضى بأي لفظ يأتيه عفوا اذا كان يتلاءم معه الوزن أو يسد مكانه في القافية طائعا أوكارها، بل لا أبالغ اذا قلت أن المتفوقين من الشعراء هم الذين برعوا في اختيار اللفظة الملائمة في المكان الملائم أو كما يقال أحيانا برعوا في «تقنية الكلمة» وعندهم أنّ اللفظة أنواع وصنوف. وكل نوع صالح لموضعه. فمنها اللفظة المكوّنة للجوّ العاطفي، ومنها الموحية بجملة من المعاني، ومنها القوية الملائمة للتعبير عن الانفعال القوي، ومنها المؤنسة في السياق، ومنها العذبة، ومنها المساعدة على الهمس. وهناك اللفظة الدّقيقة للمعنى الدقيق. ونجد في الشعراء المعاصرين جماعة امتازوا بالاهتداء الى سرّ صوغ الألفاظ ومعرفة أبعادها في النفس وقوة سحرها نذكر منهم نزار قباني (جوهري الالفاظ) وعمر أبو ريشة والشابي وأمين نخلة وشفيق معلوف...

وهذه فقرة لعمر أبو ريشة يتحدث فيها عن أحد سلاطين المحميات البريطانية الذي أنفق على عشيقته الشقراء عشرات الألوف من الدولارات:

صاح يا عَبْدُ... فرفَّ الطيب واســ تعرّ الكأس وضـجَّ المضجـع
منتهى دنياه نهد شَرِسٌ وفَمٌ سَمْحٌ وخصر طيّع

والبراعة كلّ البراعة في استعمال الأفعال: رف واستعر وضج التي احدثت تأثيرات قوية في الذهن وكوّنت صورا دقيقة في الخيال. وفي استعماله نهد شرس وفم سمح وخصر طيّع استطاع أن ينقلنا الى تذوّق هاته النعوت

المختارة في هذا الموضع . وهذه أبيات من قصيدة لأحمد اللغماني بعنوان «عودة الصيف» تمتاز بجمال الديباجية وحلاوة اللفظ المنتقى بذوق حساس مرهف :

الصّيف عاد يــزف للدنيا بشــاشته وبشـــرهْ
عادت لياليه القصار تضيف للأعمــار فتــرهْ
عادت ليالي الصيف تشرق رونقا وتشع نضرهْ
سمّارها الظرفاء قد هجروا المضاجع والأســرهْ
في كل منعــرج لهــم نـاد تظلّلــه المســرّهْ

وقصيده الآخر «أحلى المواعيد» فهو آية في الجمال وحسن السّبك بل هو من أروع الشعر المعاصر:

مُنستيرُ والشاطىء الأزرق ومصطافه الآهل المشــرقْ
وشهر أغسطس لما أطـــلّ حواشيه تِبْــرٌ واستبــرق
منستير أحلى مواعيدنـــا أغسطس والشاطىء الازرق
نلمّ به كلّ عام عطاشـــا وفي ظله المنهل الريّــق...

هذا بإيجاز ما يتعلق بألفاظ القصيدة . وأمّا الصور الشعريّة فهي ذات أهمية بالغة في الشعــر الحديث بل هي عنصر من عنــاصر تكوينه لاوسيلة من وسائل الأداء فحسب. وهي التي يتفاضل بها الشعراء ويمتازون. وقد اختلفت الصور الشعرية بين عصر وعصر وكانت تسمى عند الأقدمين بالاستعارة على اختلاف انواعها (تمثيلية ـ مكنية ـ مرشحة ـ مجاز عقلي ـ تشبيه بليغ ... الخ) وكانت الصورة الشعرية عند الرّومانسيين تنطلق لتحلق بعيدا في سماء أخيلتهم المجنّحة ـ أما شعراء اليوم فقد أصبحوا ينزعون الى الصورة الدقيقة التي تظل متّصلة بالحقيقة والواقع سواء صوّرت موقفا من المواقف أو حالة نفسية أو فكرة من الفكر .

وهذا نموذج من شعر مصطفى خريف يصف فيه راقصة . قال في

ديوانه «شوق وذوق»:

وتراءت بنت حواء على الملعب تخطر
في غلالات رقيقات من الوشي المحبّر
رصّعتها يد فنان بياقوت وجوهر
نسجت فيها أعاجيب من الألوان تبهر
أتراها لجة جُنّت فقامت تتبختر
هاجها الإيقاع فارتاعت كما يرتاع جؤذر
ماجت الأعطاف موجا صاخبا تُرغي وتزخر
وتلوّى الخصرُ، ياليت يدي للخصر مئزر
وعلى الرّدف اتزانٌ واكتمال وتجبّر
وتمطّى قدُّها ثم تَداني فتخدّر
في انكماش وارتعاش واندهاش وتحيّر
يتداعى الجيد والزّندان في أبدع منظر
ويفيض الصدر من وجد وشوق وتأثر... الخ

فمي هذه القطعة نجد صورا تنزع الى الدقة والتصوير المادي وتلتزم الواقع.

ولا شك ان الادب العربي مليء بمثل هذه الصور الواقعية مثل الأوصاف الواردة في معلقة امرئ القيس والشعر الجاهلي بصفة عامة، غير انَّ هناك من النّقاد من يرى التصوير المادي في الشعر ليس بشيء ويميّز بين رؤية العين و الرؤيا الباطنية كما أسلفنا ذلك . فالصورة الشعرية الحق هي التي تمتزج فيها الحقيقة المادية بالإحساس الوجداني على نحو ما جاء في قصيدة لبدر شاكر السّياب بعنوان «الأسلحة والأطفال» فقد صوّر فيها رجلا يبحث عن ابنه الغريق في النّهر فنلمس فيها المشهد الخارجي والانفعال النفسي يتعاقبان على الرّجل. يقول:

عويل من القرية النّائيهْ

وشيخ ينادي فتاه الغريـــق
بهذا الطريق وذاك الطريـق
ويسعى الى الضفة الخاليـــه
يسائل عنــه الميـــــاه
ويصرخ بالنّهر يدعو فتـــاه
ومصبــاحــه الشــاحــــب
يغنّي سُدى زيته الناضــب:
محــال تــراه
ويحنو على الصفحة القاتمة
يحدق في لهفــة عارمـــــة
فما صادفت مقلتـــــــاه
سوى وجهه المكفهر الحزين
ترجرجه رعشة في الميـــاه
تغمغم ـ لا ـ لن تـــــراه ...

بل هناك من النقّاد مَن يذهب الى القول بأنَّ القصيدة إنما هي مجرّد الصورة ولا وسيلة لأداء التجربة الشعرية الا الصورة. ويذهب الدكتور ماهر حسن فهمي في كتابه «المذاهب النقدية» الى القول بانه يستطيع ان يقيِّم الفنّ الشعري بما فيه من صور، وأن يطبق أصول فن الرسم على هذه الصور. ومجال الصورة الشعرية يتجلى في رسم الأشخاص وفي رسم المواقف.

وفي صورة رسمها الشاعر المهجري رشيد أيوب لدرويش زاهد يقول فيها:

وقفنا عند ـ مــرآهُ   حيارى ما عرفنــاهُ
عجيب في معانيــه   غريب في مزايــاه
له سروال جــوّاب   غبار الدهر غشّــاه
ووجه لوّحته الشمـــ   ـس غارت فيه عيناه

سألنا الناس من هذا   فقالوا يعلم اللـه
فلا ندري بما فيـه   ويسهو إن سألنـاه
كأنْ في صدره سرًّا   وذاك السِّر ينهـاه
اذا ما جنَّه ليـل   ترامت فيه نجـواه
فيرعى النجم إذ يبدو   كأن النجم معنـاه
تراه إن سرى بـرق   تمنَّـاه مطايـاه
وإن أصغى لصوت الناي أشجـاه وأبكـاه
اذا أعطيته شيئـا   أبت جدواك كفـاه
وفي الدنيا لأهليهـا   حطـام ما تمنَّـاه .

وخلاصة القول أن الحكم على الأثر الشعري يجب أن يدخل في حسابه كل هاته المسائل سواء من جهة المضمون أو من جهة الشكل أعنى التجربة بالذات ومادتها الشعورية وأدواتها، ومن أبرزها الألفاظ والصورة والموسيقى. والموسيقى لا يـراد بها في الشعـر الحديث موسيقى الأوزان العربية ولا موسيقى القافية، فقد أصبحت تلك الموسيقى التقليدية موضوع هجمات ومناقشات من طرف الشعراء المحدثين فهي في نظرهم مدعاة للملل والرتابة . وهي تقتضي من قارئ الشعر أو سامعه جهدا عقليا كبيرا . ثم هي من ناحية أخرى تُعيق الشاعر الذي نظم القصيدة عن الاحتفاظ بحرارة عاطفته وتدفق شعوره وتضطره للتوقف والتريث بحثا عن القافية المناسبة وتحبسه في قيد البحر الواحد.

على انَّ تلك البحور والأوزان ربما كانت أضيق من أن تستوعب مشاعر الفنان المرهفة الدقيقة أو فيض إلهامه المتدفق. وكثيرا ما أجبرت الأوزان القوافي متعاطيها الى حشو أبياته بما لم يكن يريد ولا هو من قصده لكي يصل بالبيت الى نهايته المحتومة. هذه بعض المآخذ التى أخذت على الاوزان والقوافي التقليديـة. وهذا هو سبب تحلل كثير من

الشعراء من هذه القيود واختيارهم النظم على التفعيلة الواحدة والتزامها في صوغ أشعارهم وهذا الذي سموه بالشعر الحرّ او المتحرر وهو الذى أصبح ينافس الشعر المنظوم حسب قواعد الخليل بن أحمد منافسة جدية والذي أطلقوا عليه الشعر العمودي، وأول مَن نظم الشعر الحر على التّفعيلة الواحدة الشاعرة العراقية «نازك الملائكة» او «بدر شاكر السّياب» على اختلاف في ذلك ـ وأول شعر لهما على الشكل الجديد في أواخر سنة 1947 ـ ويظهر ان هذا الشكل الجديد كان متأثرا بآراء ومبادئ الشاعر الإنجليزي «أليوت» الذي تأثر به وبكتاباته النقدية كثيرٌ من الشعراء والنقاد العرب.

وقد استعاض الشعر الحديث عن موسيقى الوزن والقافية اللازمة لكل شعر بما أسموه بالموسيقى الداخلية وهي أشبه ما تكون بالتوافق والانسجام في أجزاء أية سمفونية موسيقية فالقصيدة يجب أن تساير انفعالات الشاعر وأحواله العاطفية والنفسية صعودا ونزولا، وقوة وخفوتا خلافا لموسيقى الشعر التقليدي المعتمدة على الرّنين والترنيم الموحّد أو الإيقاعات التي توافق جميع أجزاء القصيدة المقامة على الوزن الموحّد والقافية الواحدة.

خطة المعلّم بين السّموّ والعبوديّة

المعلّم الابتدائي شخصية عتيقة شائعة تذهب في الزّمان حتى تصل بمبدإ الخليقة، وتذهب في المكان حتى تشمل جميع أقطار الأرض المعمورة. فالله سبحانه علّم آدم الأسماء وآدم علّمها بنيه ومازال بنوه منذ ذلك اليوم الى يوم الناس هذا، والى ما يشاء الله وهم بين معلّم ومتعلّم، وما زالت وظيفة المعلّم من قديم الدهور تسير بسير الزّمن وتتطور بتطورات العالم، ويتّسع مداها باتساع مدارك الانسان واستعداد عقله للنموّ والرّقي.

والمعلّم كذلك شخصية إنسانية عالمية. فالمعلّمون يُعدّون في الدنيا بالملايين ولكنّهم رغم هذا التعدد في أفرادهم، والتباين في أجناسهم ولغاتهم قد يشتركون في بعض الخصائص والعواطف، ويتّفقون في بعض الميول الملازمة لصناعة التعليم، وربّما يتألّمون من نوع الآلام، ويبتهجون بنفس المباهج التي تعرض للمعلم في حياته اليومية.

والمعلم وظيفة اجتماعية ضرورية للعمران البشري. وهي وظيفة طرفها الأعلى متّصل بالرّسل والأنبياء والفلاسفة والحكماء وطرفها الأدنى ينتهي إلى مؤدب الكتّاب حين يجلس على حصيره يعلّم أطفال القرية حروفهم الهجائية.

ونحن إذ نتكلّم على المعلم سوف لا نهمل الناحية الانسانية التي يشترك فيها كل المعلمين على الإطلاق ولكننا سنحرص بالخصوص على

(*) محاضرة القيت في اسبوع التعليم الابتدائي بتونس — افريل 1946 ونشرت بمجلة المباحث في عدد أكتوبر من نفس السنة.

أن يكون اهتمامنا منصرفا إلى المعلّم التونسي من حيث علاقته بالتاريخ والأدب والبيئة التي يحيا فيها والمكانة التي يجب أن يشغلها في مجتمع قومه.

ولنسأل أولا التاريخ كيف كان الأقدمون ينظرون إلى المعلم؟ نعم لنسأل التاريخ عن هذا إذ لا بدّ أن نقوّم بعض الأخطاء التي وقع فيها الأقدمون، وهي أخطاء مازلنا نلمس آثارها إلى اليوم. إن الأقدمين لم يكونوا ينظرون إلى المعلم نظرة تناسب العمل الاجتماعي الذي يقوم به في حياة الامة بل انهم لم يروا في وظيفته الا جانب العبودية. أما الجانب الثقافي الروحي فإن قليلا منهم اهتدى إلى أهميته وأعطاه ما يستحقّ من السموّ والاعتبار.

فكتب الأدب العربي – سواء الكتب الرفيعة منها أو كتب المحاضرة – تذكر المعلّم بكلّ سوء، وتروي عنه من النّوادر ما يجعل اسمه مرادفا للجهل والحمق والسخافة – ولنترك كتب المحاضرة التي لا تخلو من باب في نوادر المعلمين محشورة مع نوادر الحمقى والممرورين، فأمثال هاته الكتب قدألفها أشباه العوام للعوامّ وراجت في أوساطهم فكانت مما أعان على تكوين تلك العقلية السخيفة التي تنظر إلى المعلم نظرة الاستصغار والاستجهال... لنترك هاته الكتب العامية الفكرة كمستطرف الابشيهي ومحاضرات الرّاغب الأصبهاني ولننظر ما قيل في كتب الأدب الرفيع عن المعلّمين على معنى التنقص والتّحقير.

فقد روى الجاحظ في البيان والتبيين (ج 1 ص 208) ذلك البيت المشهور ونسبه إلى صقلاب الشاعر وهو قوله:

وكيف يرجّى العقل والرّأي عند مَنْ   يروح على أنثى ويغدو على طفل

وروى أبو العلاء المعرّي في رسالة الغفران أبياتا عزاها إلى العلوي البصري وقال إنها معروفة مشهورة. وهذا العلوي البصري كان من زعماء القرامطة والأبيات قالها يهجو صناعة التعليم حين كان معلما:

أيا حرفة الزّمنى . ألمّ بك الردّى أمالي خلاص منك والشّمل جامع
لئن قنعت نفسي بتعليم صبيـة يد الدّهر، إنّي بالمذلة قانع
وهل يرْضَيَنْ حرّ بتعليم صبيـة وقد ظن أن الرّزق في الأرض واسع .

وروى أبو منصور الثّعالبي في ثمار القلوب كما روى غيره أيضا الأبيات التي عيّر بها الحجّاج بن يوسف ـ وقد كان معلّما بالطائف ـ وذلك قبل أن يلتحق ببني أميّة ويصير جلدة ما بين عينيْ عبد الملك كما عبّر بذلك عن الحجاج .
فمن الذين عيّروا الحجاج بالتعليم مالك بن الرّيب وذلك إذ يقول :

فماذا عسى الحجاج يبلغ جهده إذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد إياد
زمان هو العبد المقرّ بذلة يراوح غلمان القرى ويغادي

وقال آخر يعيره بالأرغفة التي كان يأخذها أجرا عن تعليم صبيانه (وكان الحجاج يُسَمّى كليبا) :

أينسى كليب زمان الهُزال وتعليمَه سورة الكوثر
رغيفٌ له فلكة ما تُرى وآخر كالقمر الأزهر

وجرى ذكر المعلمين يوما بين الواثق الخليفة العباسي والإمام اللغوي أبي عثمان المازني فقال المازني للواثق : يا أمير المؤمنين : لقد قلت فيهم :

إنّ المعلم لايزال مُضَعّفَـا ولو ابتنى فوق السماء بناءَ
مَن علّم الصبيان أضْنَوْا عقله مما يلاقي بكرة وعِشَاءَ .

قالت الرّواية فاهتزّ الواثق طربا وقال:كيف لي بقربك؟ . ونحن لا ندري ممّ طرب الواثق؟ أمن الشعر وهو سخيف أم من هجو المعلمين وهو خلاف ما يعرف عن الواثق من إكرامه لمعلمه حتى قيل له في ذلك فقال : هو أول من فتق لساني بذكر اللّه وأدناني من رحمة اللّه .

والمشهور عند الناس أن الجاحظ كان من أشدّ أعداء المعلمين، وأنه ألّف فيهم كتابا يجمع نوادرهم، ويفضح أعوارهم .ورأيت في كتب

المحاضرة نوادر في المعلمين منسوبة إليه. والظاهر أن كل ذلك من تخرّصات المؤلفين وتلفيقاتهم فإني رأيت الجاحظ قد ذكر المعلمين في «البيان والتبيين» وسفّه رأي متنقصيهم وردّ مزاعم الذين ينعتونهم بالحمق فقال (ج 1 ص 209):

«كيف تستطيع أن تزعم أن مثل علي بن حمزة «الكسائي» ومحمد ابن المستنير الذي يقال له «قطرب» وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى؟ وكيف تقول مثل ذلك في هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء مثل الكميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد وعطاء بن أبي رباح... الخ، فلا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم فإن ذهبوا الى معلمي كتاتيب القرى فان لكل قوم حِشْوَة وسِفْلة، فما هم في ذلك الا كغيرهم».

على أن هذه الظاهرة - ظاهرة تنقص المعلم - كانت - والحق يقال - مقصورة على العوام وأشباه العوام، أو هي من الهنات التي ترتكبها بعض الشعراء لهجاء خصومهم أو التندر بهم. أما كتب العلم والدين فانها لم تقصر في تقرير فضل المعلم وتبيين سموّ وظيفة المرشد والمبصر وهي أسماء كانوا يطلقونها على المعلم أيضا. وقد ألّف محمد بن سحنون كتابه في آداب المعلمين، وتكلم الغزالي على التعليم والمعلم في الإحياء وفي كتاب الإملاء على ما أشكل من الإحياء، وذهب الى أنَّ التعليم أفضل من سائر الحرف والصناعات، وبيَّن وجه هاته الأفضلية بتفصيل، وأطال الكلام عليها في الجزء الأول من كتابه العظيم وهو الذي كتب هاته الجملة البليغة في معرض حديثه عن المعلم وذلك حين يقول:

«من اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما»

* * *

وقد فكّرت في سبب إلصاق العامة وأشباههم صفات الضعف والحمق والمهانة بالمعلمين، ولماذا كانت هذه الصفات مقرونة في أذهانهم

بمن أوكلوا إليهم تعليم أبنائهم . وأحسب أن ذلك يرجع الى احتقارهم للطفل، وعدم اعتبارهم له كشخص ممتاز، وجهلهم لنفسيته كل الجهل. فالطفل عندهم خلق ضعيف ليس له من مميزات الرجل شيء لا في التفكير ولا في الإدراك . وكل ما يصدر عنه من الأفعال والأقوال إنما هو مجموعة سخف وجهل وتخليط. ومعلمه بطبيعة الحال يكون في مستواه وإلا لما استطاع تعليمه وإفهامه بل ربّما يكون أقرب النّاس للعدوى من عقله الصغير حتّى يصير ينظر للأشياء نظرته لها، ويحكم عليها حكمه . وتدبر كل ما جاء من شعر وأمثال على هذا المعنى تجد الأقدمين قد نظروا الى الطفل تلك النّظرة الخاطئة، ولم يبخلوا على معلمه بنصيب منها . وهكذا بقي الطفل ضحيّة هذا الفهم السقيم الخاطيء، وهاته النظرة المشينة المعيبة حتى جاء العصر الحديث فدرس الطفل درسا منظما وتقدّم علما النفس والتربية تقدما عظيما كانت له نتائجه في هاته الناحية. فأصبح الطفل شخصية محترمة معتبرة ، شخصية قائمة الذات لها انفعالاتها الخاصة أمام الكون ولها شعورها وعواطفها في الحياة. شخصية جذابة تحتوي على كنوز من المحبة لا تفتح إلا لمن يستطيع استفتاحها، وفيها من الشهامة والمروءة أسرار لمن يقدر أن يثير مكامنها ممّا لا نجد له نظيرا عند كثير من الكبار، وفيها من الشعور بالعزّة والكرامة لمن يعرف أن يقرأ نفس الطفل ما إن جرحته يوما لبقيت آثاره في نفسه حية لا يمحوها كرّ السنين والأعوام . فالطفل هو رجل كتب بأحرف صغيرة بل هو رجل مازال على الفطرة صحيفة نقية بيضاء خلعت عليها الطبيعة من الجمال والطرافة ألوانا ساحرة وصورا رائعة.

الطفل صحيفة نقية بيضاء ولكن أحزان الدنيا وضروراتها هي التي تطبع نفسه بآثار مختلفة، تعمل فيها البيئة التي تكوّنه، والوسط الذي يتربّى فيه ثم يدور الزمن دورته فيصير الطفل مراهقا ثم شابا فتتكيّف

شخصيته بصور أخرى فتراه يسعى الى استكمال وسائل الرجولة ويتسلح لمعركة الحياة . والمعلم في كل هاته الأطوار هو الذي يكيّف هاته الشّخصية ويوجه منازعها الى اتجاهات صالحة وبقدر ما يكون للمعلم من قوة الشخصية يكون تأثيره على اتجاه ذهن الطفل وطبعه بطابع ممتاز.

وقد علّمنا علم النفس احترام الطفل لأنّنا عرفنا على التحقيق أن الكبار لا يفضلونه إلا بقليل، فإذا كان للطفل لعبه وملاهيه من طبول ومزامير، وضفادع وعصافير، فإنّ للرّجل لعبا من نوع آخر لا يفتأ في الجري وراءها والسعي للتحصيل عليها . ولئن طغت الأنانية على الطفل وكانت هي أظهر صفاته في طور الصبا، فمن ذا الذي يتجرد من الكبار عن أنانيته في سبيل تحقيق مطالبه ورغباته .

ويزيد في اعتبار الطفل اليوم ما أصبحنا ندركه من أهميته كعنصر من العناصر التي تتكون منها الأمة المقبلة . فنحن نعنى اليوم بالطّفل كل العناية ونحرص على سلامة جسمه وعقله، ونعده إعدادا حسنا لأنه عدة المستقبل وذخيرة الوطن في الغد.

وقد رأينا كيف تجعل الأمم الرّاقية مسألة تربية النشء وتعليمه من أكبر المسائل التي تخصها بالعناية والاهتمام وتهيء لها البرامج والأموال وتوفر لها أسباب الشمول والانتشار.

وقد أصبح اليوم من الحقائق المسلّم بها أنه بقدر ما يكون للأمم من العناية بأمر أطفالها والسّهر على تربيتهم وتثقيفهم يكون سيرها نحو الرقي والتقدم مطردا.

وهل هناك أروع وأجمل من منظر الأطفال يروحون ويغدون الى مدارسهم :

قطيع يزجّيه راع من الدهر   ليس بلين ولا صُلّب
كساهم بَنان الصّبا حُلّة   أعزّ من المُخْمَل المُذْهَب

وأبهى من الورد تحت الندى   إذا رفَّ في فـرعه الأهــــدب
وتلك الأواعي بأيمانهـــم   حقائب فيها الغد المختبي (شوقي)

نعم – إنَّ هذا الطفل الذي كان لا يُؤبَه له في الماضي قد أصبح له شأن غير شأنه بالأمس. لقد أصبح عزيز الجانب مرعي الحرمة، وصار القائم على تربيته في الرّعيل الأوّل من المصلحين العاملين على بناء شعب سليم الجسم، مستنير الفكر، ولم يعد المعلّم ذلك الرّجل المدرج مع المضعّفين، المحشور في سلك النّوكى والمُحَمَّقين. لقد بقي المعلم ينتظر من الشعر أن ينصفه بعد أن ظلمه، وأن يأسو جراحه بعد أن كَلَمه. بقي ينتظر ألف سنة حتى جاء من يقول للمجتمع بلسان شوقي:

قفْ للمعلّمِ وفِّه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرفَ أو أجلَّ من الذي   يبني وينشئُ أنفسا وعقولا

أو الذي يقول بلسان الرّصافي:

معلم أبناء البلاد طبيبهم   يداوي سقام الجهل، والجهل مُسقِمُ
فلو قيل من يستنهض القوم للعلى   اذا ساء محياهم لقلت المعلّم

* * *

لندخل الى هذا المكتب الابتدائي في هاته القرية الصغيرة. هؤلاء أطفال صغار مع معلمهم في ساحة المدرسة، يشرح لهم بعض الأشياء أو يشاركهم ألعابهم – يظهر أنّه يحبهم وأنهم يحبّونه – فمن هؤلاء؟

أمّا هو فقد عيّن بهذه المدرسة أوّل ما دخل الى حياته الجديدة بعد الدراسة. هو شاب جاوز العشرين بقليل، ونزل الى الميدان بهمة فتيّة وعزم صارم. وتَلَقَّى الحياة الواقعية لأوّل مرة بابتسامة الآمل ونظرة المتفائل. هو شاب يحمل بين جنبيه قلبا يزخر بالعواطف الشّريفة، والإحساسات النّبيلة، وتجّول في رأسه آراء في التربية، ونظريات في

أساليب التَّعليم، وبرامج لإصلاح الأَخلاقي ، ورغبة صادقة في النفع والإرشاد. لقــد تعلم فيالمدرسة الثــانوية واجبات المعلم كلهــا ما كان منها نحو نفسه أونحو تلاميذه، أو نحو بلاده ، وامتلأ وطابه بالمبادئ البيداغوجية الحديثة والنظريات الفلسفية، وقرأ ما كتب علماء التربية والنفس في أحوال الأَطفال وميولهم وغرائزهم، وطرائق تربيتها وتوجيهها وقد جاء اليوم الذي سيطبّق فيه تلك الآراء والنظريــات . وأما هم فقد كانوا خمسين طفلا أو يزيدون تتراوح أعمــارهم بين السادســة والتاسعــة ، جاؤوا الى القريــة من أوساط مختلفةففيهم ابن الفلاح أو العامل، وابن الصانع أو التاجر، وفيهم ابن الغني أو الفقير، والوجيه أو الخامل. جاؤوه لا يعرفون شيئا ولا يستطيعون عمل شيء. جاؤوه وفي طباعهم خشونة، وفي ثيابهم قذارة، وما منهم إلا له عادات مستهجنة وطباع غريزية تجنح الى الإفساد والتحطيم والتخريب. وكان عليه أن يقوّم الطباع المعوجة، ويهذب النزعات الشريرة، ويحارب تلك العادات المستهجنة، كان عليه أن يعدل بين الجميع، ويظهر عطفه على الجميع، ويشمل بعنايته ابن الخامل والوجيه، وابن الغني والفقير . وكان عليه أن يرتفع بهؤلاء الأَطفال قليلا ، فيفتق عقولهم المتطلعة الى إدراك الحقائق، ويهيء أذهانهم الى تصور المعــاني، ويفتح أبصارهم الى الجمــال المنبث في الخليقة ، ويكشف الى أنظارهم الأَسرار الكامنة في الطبيعة وهنا تعترضه أول صدمة: هذا الشاب المتقد الشعور، المشبوب العاطفة، المرهف الحس، المتحمس للحياة هل يستطيع الثبات أمام هؤلاء الأَطفال الخمسين الذين يحاولون أن ينزلوه صباح مساء الى مستوى تفكيرهم، والذين يبقون جامدين صامتين كلما أراد أن يبعث فيهم شيئا من حرارة نفسه والتهاب شعوره؟

هل يستطيع أن يثبت في الميدان الى النهاية؟ كل يوم يقتطع من عقله ليكمل عقولهم ، ويمزّق من نفسه ليُرقع نفوسهم، ويقبس من ناره

المقدسة لإيقاد النار الكامنة في أرواحهم الفتية. يفعل ذلك في إصرار دون أن يخشى على عقله من الخمود، أو يخاف على نار نفسه من الهمود.

وتمرّ الأيام والشهور والسنوات متثاقلة رتيبة وهو على تلك الحال... ثم لا يزال أطفالنا يترقون في درجات الدراسة درجة فدرجة ويحل محلّ الذاهبين آخرون وآخرون... وهكذا دواليك: أطفال في إثر أطفال، وأجيال تعقبها أجيال. أما تلاميذه الخمسون فإن مَنْ بقي منهم قد وصل الى القسم العالي. هاهم يتهيأون الآن لاجتياز امتحان الشهادة الابتدائية وسيرشح منهم اليه كثيرون هذه السنة.

عجبا!. هل هؤلاء اليافعون هم حقيقة أولئك الأطفال الذين جاؤوه لأول مرّة حينما حل بقريتهم الصغيرة؟ لشد ما تغيّروا. أين هم اليوم في لطف شمائلهم، ورشاقة حركاتهم، وحسن هندامهم، ونظافة أبدانهم من أولئك الأطفال الصغار الذين دخلوا المدرسة وهم لا يعرفون نظافة ثوب أو بدن، ولا يستطيعون تقليم ظفر أو قص شعر، ولا يحسنون شيئا من المشي أو الجلوس، ولا يفرّقون بين الألف والباء... هم الآن يكتبون ما يُمْلَى عليهم على وجه الصواب، ويجيدون فنون العد والحساب، ويعرفون طبائع الأشياء وقد تعلموا من قوانين الطبيعة وأسرار الكون ما لم يظفر بمعرفته أفلاطون وابن سينا. وهم اليوم مطلعون على تاريخ بلادهم وجغرافيتها، ولهم إلمام بتاريخ أمم أخرى وبلاد متعددة وجغرافيتها، بل هم اليوم ينشئون الصحيفة والصحيفتين إنشاء لا غبار عليه، ويرتلون سورا برمتها من القرآن الكريم، وينشدون روائع الشعر والنثر إنشادا عن ظهر قلب.

فكيف وصلوا الى هاته النتيجة؟

إنَّهم ما وصلوا إليها الا بفضل جهاد ذلك المعلم الشاب.

لقد جعل حياته في القرية كلها جهادا ـ لقد حارب الأخلاق السقيمة

وحارب العادات القبيحة الموروثة عن الوسط الجاهل، وحارب نزعات الطفل وميوله الفاسدة، وجنوحه الى الكسل والأنانية، وحارب الجهل والأمية، والمعتقدات السّخيفة، وقد تراه في الوقت الذي يفرغ فيه كل عامل من عمله، ويستسلم الى مباهج نفسه، قد تراه جالسا الى مصباحه وأمامه أكوام الكراسات يصلح أخطاءها ويقوّم ما عوّجه أطفاله، حتى إذا ما انتهى هذا العمل المرهق أخذ يُعِدّ الدروس أو يجهّز برنامج الشهر، أو يلخّص من الكتب مُذكّرات يكتبها لنفسه ثم يقدّمُ في الغد زبدتها الى تلاميذه سائغة ميسورة.

وهو إذا خرج بعد ذلك الى القرية فلكي يجاهد جهادا من نوع آخر إنه يرى من واجبه أن يقاوم الخرافات التي تملأ حياة العوام، ويقاوم الأمراض الاجتماعية التي يراها متفشية في ذلك الوسط، ويُرشد ويُعلّم ويقدّم نصحه ومعونته للجميع.

نعم يجاهد كل هذا الجهاد. وقد يتذوّق لذة الانتصار أحيانا وذلك حين يرى غراسه قد أثمر وأخرج زهرات يانعة جميلة، وحين ينظر نظرة العجب والفخار كيف أمكنه بمحض إخلاصه وصادق عزمه أن يكوّن جيلا جديدا هو أوّل من فتح بصره للنور، وفتق لسانه بالبيان، وانتزعه من مخالب الجهالة والضلالة؛ ثم يرمي نظره الى المستقبل فيرى القرية بعد سنوات وقد استنارت بهؤلاء الأطفال فتولوا شؤونها وتقلدوا كل المناصب فيها، وأصبحوا مبعث حياة ونشاط لقريتهم يؤسسون الجمعيات المفيدة، والمشروعات النافعة التي يتم بها نهوضها، وازدهار عمرانها، وانبثاق نور العلم والمعرفة في ربوعها.

نعم! قد يتراءى له كل ذلك فيسرّه ويبهجه، ولكنه لماذا يشعر الآن بكآبة وانقباض، ولا يكاد يستقرّ في مكان ممّا به من القلق والاضطراب؟ ذلك لأنه نظر في حالته هو واستعرض حياته من يوم جاء الى هاته القرية. فكم مرّت به من ساعات سآمة وضجر، وكم صبر على مرارات العسر

والحرمان: حياة جافة قاحلة، وعيش مكرر رتيب، مساء وصباح، وغدوّ ورواح . . . وفصول تتلوها فصول، والكرّاسات والمحابر، والأقلام والدفاتر دائما هي هي حياة هادئة مفرطة في الهدوء، بسيطة مغرقة في البساطة، لا مفاجآت فيها ولا مغامرات، ولا مال ولا نفوذ، رحمة الله على آمال الشباب التي كان يزخر بها قلبه، وسلام على العواطف المشبوبة التي تتقد بها نفسه.

من هو معلم القرية الذي لم ينشد مع محمود غنيم:

... أيذوى شبابي بين جُدْران قريــة يباب كأن الصمت فيهــا مخيّــمُ
أكاد من الصمت الذي هو شاملـي اذا حسب الأحياء ـ لم أك منهُــمُ
وعاشرت أهليها سنين وإننـــــي غريب بإحساسي وروحي عنهُــــمُ

قد يقال أن العيش في القرى من النعم المشتهاة . أليست القرى خضراء المرابع، نضرة المغاني؟ فالمقيم فيها مقيم بين أحضان الطبيعة، قريب من قلبها النابض. نعمَ! هم يقولون ذلك:

يقولون خضراء المرابع نَضرةً فقلت هبوها لستُ شاة تُسَوّمُ
على رِسلكم إني أقيم بقفـــرة يجوز على الأحياء فيها الترّحم
سئمت بها لونا من العيش واحدا فداري بها داري وصحبي همُ همُ

ومن هو معلم القرية الذي لم يدفعه الضجر والوحشة واللغوب الى إنشاد هاته الأبيات يفرّج بها عن قلبه:

حنانيك إني قد مررت بفتيــة أروح وأغدو كل يوم إليهــمُ
صغار نربيهم بمثل عقولهـــم ونبنيهم لكننا نتهــــدّم
فصول بدأناها وسوف نُعيدهــا دواليك واللحن المكرّر يسأم
فمن كان يرثي قلبه لمعــذب فأجدرُ شخص بالرثاء المعلّم

* * *

لنترك معلم القرية يتبرّم بعيشه ويشكو أيام شبابه الذّاهبة ولْنصاحب قليلا معلم المدينة . وقد يبدو لأول وهلة أن المعلم في المدينة يكون

أقل تعلقا بتلاميذه، وأضعف تأثيرا في توجيه تربيتهم، لأنه لا يكون معهم إلا ساعات معدودة في اليوم ، ثم لا يعود إليهم بعد ذلك الا في اليوم التالي. قد يكون هذا صحيحا، ولكن المشاهد أن كثيرا من المعلمين لا يتركون الطفل لنفسه، فكثيرون منهم هم الذين يديرون فرقا كشافية، أو جمعيات رياضية ، أو منظمة من المنظمات التي تُعْنَى بشؤون الشباب وتوجِّه نشاطه خارج المدرسة. فإن لم يكن المعلم مساهما في المنظمات المجعولة لتطويق الشباب والإشراف على نشاطه، تراه لا يضن بنشاطه ومجهوداته على منظمات أخرى ذات نشاط اجتماعي أو ثقافي أو خيري...

ومن الأمور التي لا تدفع أن الحركة الأدبية ببلادنا تدين بالشيء الكثير من حيويتها ونجاعتها للمعلمين سواء كانوا في التعليم الابتدائي أو الثانوي.

ولمعلم المدينة مباهجه وفرحاته ولكن له الى جانب ذلك أحزانه وتضحياته.

هذا معلم قد بلغ الأربعين أو الخمسين فأخذت قواه في التناقص وأخذ جسمه في التراجع. ينظــر حوله فيرى أترابه ولداته الذين بدأ الحياة معهم على مقاعد المدرسة وخرج معهم للمجتمع، يرى كثيرين منهم قد كوّنوا ثرواتهم، أو تبوأوا مراكز القيادة في البلاد. لقد تقدموا كلهم، وتغيرت بهم الأحوال ووقف هو في مكانه لا يريم عنه، على أنهم لم يكونوا أكثر منه ذكاء ولا أعظم نصَبًا وكدّا، ولكنه أخذ طريقا غير طريقهم، فوصلوا هم الى غاياتهم، وبقي هو متخلفا عنهم، بل ما باله ينظر الى لداته وأترابه فها هم أولاء تلاميذه الذين تلقوا عليه أولى دروسهم قد أصبحوا متربعين في مناصب الحكم والنفوذ، أو شقّوا طريقهم الى المهن الحرة فنجحوا وأصبحوا من أصحاب الأعمال الكبيرة الواسعة النطاق. أما هو فلا يزال الصباح يلقاه مع تلاميذه، والمساء يجده مع كراساته ودفتره لإعداد الدروس.

فهو كما شبهه بعضهم - كالجسر يصل بين ضفّتيْ نهر - تمرّ فوقه أجيال وأجيال من ضفة الجهل الى ضفة النّور ويصل الجميع الى الضفة الثانية ويمضون في طريقهم، ولكن الجسر يظل قائما في مكانه لا يبرحه حتى يأتي اليوم الذي ينهار فيه في الماء فينتقل النّاس الى جسر آخر للعبور ولا يشعر بانهياره أحد أو هو كمثل السلم:

على كتفيه يبلغ المجدَ غيـرُه فما هو إلاّ للتسلّق سلّــــــم.

ومن هنا يمكن أن نقول بحق أن التعليم رسالة.

نعم! هي رسالة اجتماعية سامية - لا يضطلع بأدائها الا من كان مخلص النية في النفع، صادق العزيمة في خدمة أمته، قوي الإيمان بسموّ وظيفته حيّ الضمير في أداء عمله، عظيم الاستعداد لإنكار ذاته في سبيل إسعاد الجميع. نعم! هي رسالة، فلنخرج من شرف الاتصاف بها كل من لا يفهمها هذا الفهم فالمعلم الذي يضن بمجهوده على تلاميذه، ولا يعنّي نفسه بالتفكير في تنشئتهم تنشئة صالحة ليس برسول.

والمعلم الذي لا يحاسب نفسه كل يوم عما أفاد تلاميذه من جديد، أو فتح أمام أبصارهم من مغلق، أو أكسبهم من فضيلة، أو جنّبهم من رذيلة أو علّمهم من علم، أو هداهم من طريق ليس برسول.

والمعلّم الذي لا يهمه مستقبل تلاميذه، ولا يحرص على تشغيل أوقاتهم الثّمينَةِ بما يرجع عليهم بالنفع، وبترقية مداركهم، وفتح بصائرهم ليس جديرا بأن يحمل أمانة التعليـــم.

والمعلّم الذي يبقى السّنين الطوال مع تلاميذه وهو أبعد ما يكون عنهم، وأجهل ما يكون بنفسياتهم وطباعهم وأميالهم، وأزهد ما يكون في تقويم اعوجاجهم، وتوجيه مواهبهم إلى وجهاتها الصالحة ليس جديرا بأن يقال له «معلـــم».

فيا أيّهَا المعلم!

إن قيمتك ومكانتك هي ما تحمل من الفكرة في خطورة العمل الذي انتدبت له وشرف الخطة التي قُلِّدتها، وإن تقديرك واعتبارك لا يكون إلا بقدر ما تشعر به من الكرامة لنفسك والإخلاص لعملك، والتّرفع عن الصّغائر والحقـــارات.

ان روحك هي قوّتك ومعناك، وهي حليتك الفاخرة، وزينتك الظاهرة، وثروتك الباقية، وشرفك الحق فارباً بها عن سفاسف الأُمور وسخافات العيش.

ان نفسك هي عزُّك وكنزك، وهي فخرك وقدرك ـ فارفع بحقِّك نفسك أمام نفسك. أقبل عليها واستكمل فضائلها وادرأ بها في عظائم الأُمور الباقية، وكَبير الآمال القومية، وخذ منها لها، وحاسبها حسابا عسيرا.

أيهـــا المعلـــم!

أنت رسول نور يحمل الى كل القلوب الطاهرة الزكية مشعلا من الضياء يبدِّد عنها ظلمات الجهل ويطهِّرها تطهيرا. أنت رائد حضارة أينما حللتَ نشرتَ المحبة والوئام، وغرست غراس الفضيلة والكمال؛ ولطفت من حدة الغرائز الحيوانية، والأهواء الكامنة الدفينة.

أنت طبُّ الأرواح ودواؤها، وصَيْقل النفوس وجلاؤها. أنت هاديُ العقول ومرشدها، ومقوّم الطباع ومسددها. أنت ملاذ الطفل الضعيف وملجأ الناشئ الحائر وقدوة الشبـــاب المتعطش، أنت خادم بلادك وأمتك والانســانية جمعــاء. فلتكن اذن ذلك الرسول الكامل، والرائد الشجاع، والآسي النطاسي، والقدوة المثلى، والخادم المخلص الأمين.

لتكن آمالك واسعة المدى، وهمتك فوق السُّهى، ونظرتك بعيدة المرمى. لتكن روحك سامية ونفسك كبيرة، وكرامتك عزيزة موفورة لا ترضخ للهون، ولا تقنع بالدون.

رحماك لا تجعل مَثَلَك الأعلى في الحياة في مأكل تستمرئه ومشرب تستطيبه، وملبس تختال به، وفلس توفره وتنميه فتقصر عليه دائرة حياتك وتنهي إليه كل آمالك وأعمالك.

رحماك لا تقنع بلذة عارضة تُساق اليك فتلهيك عما يجب عليك نحو نفسك ومهنتك، وتصدُّك عن الاشتغال بما يرقّيك، وينمّي ثقافتك ويمهِّد لك سبيل النجاح في الحياة، وحسن الأُحدوثة بعد الممات.

أيها المعلم نشِّئ تلاميذك على حب الفضيلة والحق، ودُلَّهم على الطريق الواضحة، وضع في أيديهم مفتاحا صالحا يفتح لهم أبواب النجاح وكنوز الثقافة المغلقة دونهم. علِّمهم الفضائل كما تعلَّمتها من تجاربك في الحياة، وجنِّبهم النقائص التي عرفتها في نفسك وفي الناس فكرهتها أشد الكراهية، وحاولت أن تطهر منها نفسك تطهيرا.

احترم تلاميذك ليحترموك، وأحبّهم ليحبُّوك ويثقوا بك. وعلِّمهم الرجوع عن الخطإ برجوعك عن خطئك والانتصاف من النفس لينصفوا الناس من نفوسهم.

ربِّهم على الطاعة في غير ذل، والعزّة في غير كِبْر، والتعاون على الخير، والثبات على الحق، والقوة في غير ظلم، والنظام الكامل في دائرة استقلال الفكر وظهور الشخصية.

أيها المعلم تدبَّر جيِّدا أبيات شوقي:

واذا المعلم لم يكن عدلا سرى　　روح العدالة في الشباب ضئيلا
واذا المعلم ساء لحظ بصيـرة　　جاءت على يده البصائر حـولا
واذا أصيب القوم في أخلاقهم　　فأقم عليهم مأتما وعويـلا

أيها المعلم ! إذا ضقت ذرعا بالحرمان، ورأيت فقرك أمام يسر أترابك ولداتك تذكَّر دائما قول النبي صلى الله عليه وسلم:

«لأَن يهديَ اللّه بك رجلا واحداً خيرٌ لك من حُمْر النّعـم».

الشمس والقمر في الشعر العربي

الشمس والقمر آيتان من آيات الله.

آيتان تملآن النفس هيبة وخشوعا، وتجذبان الرّوح بقوة غريبة، وتفتحان للإنسان عوالم من التفكير والتأمل ترتفع به حقا الى الملكوت الأعلى، فيظل فكرة هائمة مع اسرار ذلك الخلق البديع، وذرة من ذرات ذلك الكل الهائل، وتسبيحة تسبح مع عناصر النور وعوالم الضّياء.

الشمس والقمر خلق هائل رهيب وقفت أمامه البشرية من مبدإ الخليقة حائرة مشدوهة، وضلت فيه عقول الانسانية في فجر الحياة فعبدته وقدمت له القرابين، وتقربت اليه بالزّلفى، ومجّدته بالصلوات وأنشأت في تفسير لغزه ألوف الاساطير والخرافات.

هما يطلعان من هوة المجهول وينزلان في هوة المجهول، ولكنهما بهذا الطلوع والنزول أوحيا الى العقل البشري أفانين الشعر، وأعاجيب الفكر، وعذبا روحه المستشرفة الى معرفة الحقيقة زمنا طويلا.

من هو الذي لم يحرّكه منظر الشمس المشرقة، أو مشهد الشمس الغاربة في الطفل؟

من هو الذي لم تهتزّ روحه ويتحرك قلبه عند رؤية منظر من تلك المناظر السّاحرة الفاتنة التي تتصل بقرارة النّفس وتبقى هنالك منقوشة ولا تنسى ولا تمحى كأنها من ذكريات السّعادة؟

من هو الذي وقف أمام الشمس والقمر فلم يحسّ بالعواطف تجول

* «مجلة العالم الادبي» فيفري 1934.

في قلبه،والأشواق الغامضة تتجاذبه،والفكر والأحلام تتزاحم على مخيلته؟

بلى! كل إنسان حقيق بهذا الاسم وقف أمام قلب الطبيعة النّابض، وسرها الغامض، ثم فكر وتدبر وامتلأت روحه بالهيبة والرّوعة، وعينه بالفتنة والجمال لا شك أنه أحس بالحياة تتجاوب في جوانب نفسه إحساسا يختلف في الشدة والضعف والوضوح والغموض حسب تهيّء نفسه ورقة حسه.

فالأناسي كلهم سواء في الوقوف أمام هذين الكوكبيْن ولكنّهم ليسوا سواء في كيفية الإحساس، ولا في مقدار الأثر الذي يبقيه في النفس. وهنا تظهر مزية الفنان على سائر الناس، و في مثل هذا الموقف يمتاز بكيفية النظر وطريقة الإحساس.

فالفنّان الحق هو الذي يكون له من حدّة إحساسه، ومرهف شعوره واستعداد نفسه قوة أكبر من كل القوى، وبديهة أشمل من كل البدائه وعاطفة أحرّ من كل العواطف تدرك من سرّ ذلك الجمال ما لا يدركه غيره، وتنطبع في مخيَلته من صوره ما لا يمكن ذلك لعامة الناس . فاذا أبرز تلك الصور بعد استيعابها وعبّر عن تلك الاحساسات بعد تفاعلها في نفسه كان أداؤه قويا بارزا، وتعبيره شاملا كاملا، وكان قصارى غير الفنّان ان يُعْجب بتلك القطعة أو اللوحة لأنها تعبر عن معنى شعري هو رآه مشتتا أو أحسّه غامضا مبهما ، وهو يعجب بالفنّان بقدر ما أتاح له من المتعة بذلك الجمال المشهود، وما شفى له من الغلة في التعبير عما في صدره من العواطف الغامضة،والصور المتداخلة،والاشواق التائهة .

* * *

وبعد فلنفرض أيها القارىء انك رأيت غروب الشمس في البحر، أو وراء الجبل فوقفت هنيهة مرغما لتنظر الى الشمس الغاربة،ولترسل لنفسك العنان في التمتع بتلك اللّذة التي هي لذة الكيان كله ، فاذا بك كئيب كالطبيعة التي تودّع الشمس في آخر طوافها ، أو متعب كالشمس التي

تنحدر الى مغربها في كلال ولغوب، أو راكب في ركب الضياء الباهر، أو سابح في ذرّات الاثير، او متعطش الى ذلك المنبع الاصلي تتمنى لو يتاح لك ان تصعد اليه بأجنحة من الهيولى كما صعد الشاب المسكين «ايكاريوس» باجنحة أبيه الشمعيّـة .

لنفرض ذلك، ولنفرض أنك استأنفت سيرك،ورجعت الى بيتك وبحثت في الشعر العربي عن قطعة في وصف ذلك الغروب لتقرن الى اللذة الرّوحية لذة فنية، أو تجد مجالا للتعبير عما بعثه فيك ذلك المشهد من الأخيلة والاحلام، وما أحياه في قلبك من الاصداء والذكريات؟ فماذا عساك تجد في الشعر العربي؟

أما أنا فقد تساءلت وتصفحت كتبا في الشعر فيها كلام كثير على الشمس والقمر والكواكب، ووصف كثير للطلوع والنزول ومختلف الاحوال، وخرجت من هذه المراجعة بأبيات جميلة الى حد ما،والى جانب ذلك كثير من المقطعات والابيات فيها من هذا الوصف الهندسي الذي لا يُعنى الا بالاشكال والالوان، ولا يحيط الاّ بالاقدار والاحجام، و لا يقيس الا بالمسطرة والبركار. ورأيت خلال بحثي هذا البلاء الحسن الذي أبلاه شعراؤنا الاقدمون في وصف هذين الكوكبين وتفننهم أيّ تفنن في استنبَاط التشابيه لهما بكل مافي الارض من مستدير ، وبكل مافي الطبيعَه من أصفر وأحمر، وكل مايعـزّ وجوده وتغلى قيمتـه،ويتنافس فيه الملوك والأمراء. ولعل القارىء على ذكر من بيت ابن المعتزّ الذي حشر فيه الزّورق والفضة وحمولة العنبر حينما سوّلت له نفسه ان يشبه الهلال بأشياء لا توجد الا في قصر الخلافة . وكم لابن المعتز ـ سامحه الله ـ من أمثال هاته التشابيه التي كان يتحدى بها زُمَلاَءَهُ الصعاليك،وبكثرة ما يعرف من أنواع اللجين والنضار وأصناف اليواقيت والدرر.

ومن كلام ابن المعتز قولـه :

انظر إلى حسن هلال بـــدا يهتك من أنواره الحِنْـــدِسا
كمُنْجَـل قد صيغ من فضــة يحصد من زهر الدجى نرجسا

وتشبيه الهلال بالمنجل الفضّي لا يشبع نهمه الملوكي فيأبى إلاّ أن يشبّهـه بنصف سوار فيقول:

وكـأن الهلال نصف سـوار والثريـا كف تشير إليــه

والســوار كما يكون فضة يكون عاجا:

في ليلة أكل المحاق هلالهـا حتى تبدى مثل حُقّ العـــاج

ويجب أن لا ننسى أنـه:

فخ بوسط السمـاء ملقـــى ينتظـر الصّيـد للنجـــوم

ولو مضينا نأتي بالأمثلة والشواهد لوجدنا أن من تكلم عن هذين الكوكبين لم يكن همّه الأول إلا إجادة التشبيه والتفوق على من تقدمـه في وصف شكل النيّرين أو لونهما أو صورتهما في مختلف الأحوال. وقليل من تفطن إلى ما يوحيانه إلى النفس من الخيالات والعواطف والأحـلام.

هل نقول مع «كارليل» ان الوثنية هي التي كانت توحي الشعر الصادق، وانه كلما تقدمت العصور وازدهرت الحضارة ازداد النّاس بعدا عن الشعور الصّادق والشعر الرّفيع.

لو صحّ هذا ما رأينا في العصور المتأخرة من شعراء العربية من أسمعنا نبرات جديدة تمتّ الى الروح بصلة، وتبعد عن التشبيهات الهندسية الميّتة التي لا جمال فيها ولا ايحاء.

لنستمع الى العقاد واصفا الشمس:

إذا فاض منها النور هزت قلوبـــنا سعادة روح ليس يعرفها الجسمُ
تُرى كل يوم وهي عندي كأنـــها غريب عرا، لم يُدْرَ وَصْفٌ له واسم
عجبــت لأرض تخطر الشمس فوقها وتشرق فيها، كيف يطرقها الغمّ

ويقول أبو شادي مخاطبا الشمس:

كلُّ ما أعلن الصباحُ نشيــــدٌ مستمدّ من لحنك النُّورانـــي
هتفات تُرى بكل حيـــــاة وحنان يُرى بكل مكـــــان
وكأن الوجود حين تلوحيـــــــن صلاة في روحه الفنّــان

ويقول خليل مردم في قصيد الفجـر:

ملك النور محت آيتـــــه آية الليل وان كـان طغـى
نُشرت راياتُه حمرا علــــى كل أفق إن تناءى أو دنـــا
كلّما أعملتُ فيــه نظـــرا زاد حسنـا ورُواء وضيـــا
راعني في موكب قد رسمتْـــه يدُ الله على لوح الفضـا

ويتساءل الزّهـاوي:

صاح ما هذه الدماء أراهـــا بعيوني أفي السّمـاء حروب

ويقول «ايليا أبو ماضي» في قصيدة «المساء» الرائعة:

السُّحب تـركض في الفضـــاء الـرّحب ركض الخائفيـن
والشمس تبدو خلفهـــا صفراء عاصبة الجبيــن

وقد أودع إيليا أبو ماضي في هذه القصيدة كآبة المساء ووفق الى بعث أصدائه في النفس الحائرة بصورة غير معهودة في الشعر العربي القديم، أنظر اليه كيف يبعث في النّفس هذا الشعور المبهم، هذا الشعور اللذيذ بمثل قوله:

البحر ساج صامت فيه خشوع الزّاهديـــنْ
لكنما عيناك باهتتـان في الأُفْق البعيــد
سلمى بماذا تفكرين؟ سلمى بماذا تحلمين؟

على أنه وان كان الانسان الاول يتخذ من مظاهر الطبيعة آلهة ويسبغ عليها من خيالاته وأوهامه صورا شعرية، فإن الانسان المتمدن يجعلها بعد اكتشافات العلم جزءا من كيانه تمت إليه بأقرب الصلات بل يجعل بينهـا وبين روحه نَسَبـا وقرابة ويفهمهـا هذا الفهم

والحقيقة أن نهضات الأدب إذا كانت قشورية تُعنى بالشكل وحده ولا تتصل بالرّوح طغت عليها الصنعة والبهرج، وعمل فيها التقليد والمحاكاة ما يعمله في كل شيء من قتل وتعفية وإفساد. فتُقْبَر العبقريات وتضعف الشخصيات، ويتفشّى الشعور الكاذب السّقيم.

نظرة في شعر أبي شادي

بمناسبة صدور ديوانه «فوق العباب»

«فوق العباب»

هذا هو اسم الديوان الجديد الذي أصدره الدكتور أحمد زكي أبو شادي في مستهل هذا العام. وقد ذكّرني صدور هذا الديوان الاخير فصلا نشر في مجلة فكاهية يتساءل فيه محرّره في جملة ما يتساءل عن عدد القصائد التي «يفرّخها» أبو شادي كل يوم. ذلك أن إكثار هذا الشاعر ووفرة إنتاجه أصبحت من أشهر مميّزاته، وأبرز صفاته، وقد كثر الكلام فيها وطال القيل والقال حولها، واضطر الشاعر مرارا عديدة الى الرّد والبيان والمجادلة في تصحيح ما بني على هذا الاكثار من الأوهام والخرافات.

فما تعليل هاته الظاهـرة؟

لماذا كان أبو شادي أكثر الشعراء المعاصرين إنتاجا، وأعظمهم دأبا ونشاطا؟ وهل وفرة الانتاج تنفي التّجويد والتّعمق والتّسامي بالفن كما يزعم جماعة من النقاد؟

أما أنا فكلما وضعت هذا السؤال تبين لي ان إنتاج أبي شادي لايكون في حيّز الممكنات إلا إذا التزم الشاعر أن ينظم قدرا معينا من الشعر في زمن معين كل يوم، كأن يفرض على نفسه أن لا يذهب الى فراشه قبل ان ينظم شعرا جديدا. ثم يصير هذا الالتزام عادة ويُصبح المنظوم نوعا من «اليوميات» يسجل فيها الشاعر ما استولى على فكرته ذلك اليوم أو لفت نظره من المشاهد والافكار والمطالعات والحوادث التي تعرض

كل يوم في الحياة. وبهذا التفسير يمكنني أن أعلل إنتاج أبي شادي الوفير، وأفهم لماذا كان شعره يتسع لكل الاغراض والمطالب التى تهجس بالبال، وتخطر بالخاطر، وترى بالعينين.

وإني لأتصور الشاعر جالسا كل مساء الى مكتبه يقلّب ما رأى بياض يومه، ويستعرضه في شتى صوره، ويرى فيه رأيه، ثم ينظمه كما يمليه عليه قلبه الواعي، وإحساسه المتّقد، وعاطفته الدافقة.

ومعنى هذا الكلام هو أن ديوان أبي شادي أو دواوينه يمكننا أن نسمّيها يوميات شاعر.

نعم هي يوميات فهي تبدأ بقصيدة في استقبال العام الجديد:

شتى الدّهر في أيّ وهم وُلدتَ وقد مات أهلوك لمّا ولـــدتَ

وتنتهي بقصيدة في توديع العام الرّاحل:

ودعت مشكورا عزيزا شاكـرا وعُدمت يوم قدمت حرًّا شاكرا

وفي خلال هذا العام من اليوميات تقرأ القصائد الوطنية الى جانب القصائد الكونية، وتشاهد وصف البكور والآصال، الى جانب الأساطير وبكاء الأطلال، والإشادة بذكر الزعماء والابطال.

وانه ليمكنك أن تعرف حياة أبي شادي يوما فيوما تبعا للظروف التي أحاطت بالشاعر ذلك اليوم والخواطر التي سيطرت عليه وأملت عليه هذه القصيدة أو تلك المقطوعة.

هل شاهد يوما مطيــرا:

الجوّ تملؤه الغيوم وإنمـــا للصيف جند فرّقوا ذرّاتهـا

هل سقطت وزارة صدقي باشا:

والحكم ما لم يستمدّ جلالــه من روح هذا الشعب راح ذميما

هل خطب مكرم عُبيد خطبة اجتماعية:

بودي لو أصونك عن جهـــاد   تسوء به السياسة من تصـدّى

هل زار سفينة الشمس المقدسة في الجيزة، هل شاهد ذبابة منقرضة سجنت في حجر الكهرمان منذ آلاف السنين، هل هجاه جاحد أو تطاول عليه لئيم، هل جلس الى الرّاديو، هل رأى مخلب الطاووس، هل قرأ قصيدة القرية المهجورة، هل اجتاز قرية قديمة، هل شاهد في الرّيف مناظر أليمة، هل لمح قوارب الصّيد في إحدى البحيرات، هل رأى فتاة ريفيّة ذات ملابس زاهية الالوان، هل انتظر السيّارة في الصّباح الباكر عند ترعة المطرية، هل مات هندنبرج، هل سجن الشريف عبّاس حليم، هل ذهب الى شاطىء استانلي، هل زار سنتريس، هل عقد المؤتمر الوطني؟

كل ذلك يوحي إليه بالشّعر، يغمره بالخواطر، فاذا هو يسجله تحت إملاء العاطفة التي لا زالت حارّة، والفكرة التي لا زالت مسيطرة، كما يسجل صاحب اليوميات ما مرّ عليه في يومه من الأحداث،أو ما مرّ على عقله من الخواطر التي تداعت لاصطدامها بتلك الاحداث...

فشعر أبي شادي ليس من ذلك النوع الذي يمكن حصره في باب أو أبواب، وليس مما يقال عنه أنه يغلب فيه الغزل أو الطبيعة او الفلسفة، بل هو يتسع لكل ما في الكون والحياة، فالقارىء يجد إلى جانب هذه الأغراض العارضة أغراضا أخرى خالدة تتناول مشاكل الكون وتعرض للجمال في مختلف صوره وأشكاله،وترى الشاعر يدخل إلى نفسه متأملا متألما، باحثا مفكرا، ويقف أمام الطبيعة حائرا أو فرحا أو مدهوشا أو متسائلا:

أرعشة المـاء هـــذي   عواطـفٌ للغديـــــر
وخضرة المـاء هـــذي   رمـز لـروح قريـــر

ولا عجب في أن نرى المطالب اليومية والحوادث الى جانب الأغراض العالمية السّامية. فالشاعر ممّن يعتقد بوحدة النظرة الشعرية الشاملة التي

يستوي فيها الجليل والحقير، بل لا يوجد لديها في الكون جليل وحقير، لأن كل ذلك سواء ما دام مصدر الحياة واحدا، والقوانين التي تسيّر الأحياء أزلية دائمة.

ويقول الدكتور أبو شادي في هذا المعنى:

«والشاعر الناضج لا يتجنب الدّوافع الشعرية في كل شيء: في الطريق، في البيت، في المجتمع، في الوحدة، في الارض، في السماء، في أتفه الحشرات، في أعظم الاجرام، كلها سواء عنده. وشاعريته الفنّية تقبس منها جميعا عناصر الجمال والخير والحق».

ذلك هو الشاعر النّاضج في رأي أبي شادي - واننا لنؤمن بهذا الرأي إذ كان أبو شادي أبرع من أقام عليه الدّليل في الشعر العربي الحديث. فشعره الوفير قد اتسع لكل شيء وتناول كل شيء، ولم يهمل شاردة من شوارد الفكر، ولا خاطرة من خواطر العقل، فكأنه خلق ليرى فيتملا ويستوعب ثم يتأمل ويترجم:

وما الحركات والسّكنات إلا أناشيد منوّعة البيان
وما تلك الشموس وما اليها سوى الأصداء من شعر الزّمان
قبسنا من ملاحتها وصغنا عواطفنا كأنجمها الحسان

قلت كأنه خلق ليرى فيترجم - فكيف يرى وكيف يترجم؟

هذا هو السؤال - وكل تاريخ الشعر ينحصر في كيفية نظر الشاعر وكيفية أدائه - والحكم الصائب هو الاهتداء الى شكل المنظار وتركيب عدساته.

قيل كثيرا ان أبا شادي ينظر الى هذا الكون وحوادثه بعين المتصوف وقد كتب لي مرة صديقي المرحوم أبو القاسم الشابي رأيه في شعر أبي شادي فمال الى هذا القول. ومن كلامه: «انني رضت نفسي على أن أتابع شعر أبي شادي حتى ألفته فتبين لي ان الرّجل في صميمه شاعر حساس يمتاز بروحانيّة صوفية في نظرته الى هذا الوجود».

والنّظرة الصوفية في شعر أبي شادي مبحث طويل لا تسعه هاته الكلمة وقد طلع علينا الشاعر في مقدمة ديوانه الاخير بتقسيم جديد لهذه النزعة التي هو زعيمها في الشعر الحديث فقد ذكر التصوف العلمي الذي يعرضنا بدلاً من المبهمات والمعمّيات التي تشبّع بها الشعر القديم، والتصوف النّوعي وهو الذي يرى فيه الشاعر طمأنينته وخلاصه من أسر الفنـــاء.

ولكنني الى جانب هذه الميزة أرى ميزة أخرى يكثر ترددادها في شعر أبي شادي وهي شعوره بالغبن، وشكواه من بيئته وأبناء جيله الذين لم يقدروا مجهوده حقّ قدره:

لم أُعْطَ الا بعض حقي بينمـــا ... خلصت حقوق للخسيس الدّون
ويعيش مثلي في كفاحٍ دائـــم ... ما بين حسّـــاد وبين عيون
ومن العجائب أن كلاًّ مادحـــي ... وأنا الغبين لهم وأيٌّ غبيـــن

والظاهر أن أكثر قراء أبي شادي غير راضين عن طريقة أدائه وان اعترفوا بعمق نظرته، وقوّة شاعريته ولأمر ما قال الشابي في كلمته:

«لقد رضت نفسي على ان أتابعه حتى ألفته». وهاته الرّياضة التى فعلها الشابي وكثير مثله لم يفعلها قليلو الصبر الذين لا يهمهم من الشعر الا جزالته وجرسه. وأشهد أن من يألف أبا شادي لا يلبث ان يجد لذة في قراءة شعره يعوّضه عن صبره الطويل في الرّياضة. وقديما كان المتصوّفة لا يصلون إلى النشوة الروحية والاندماج الكلي في الجمَــال إلا بعد التنقل في أنواع من الرياضات.

ان شعر أبي شادي شعر الخاصة من المثقفين الحسّاسين، وليس هو شعر الشعب، فان كان يرى انه مغبون من الشعب، فأهون بهذا الغبن.

حافظ إبراهيم كما نراه اليوم

خمسة وعشرون عاما مضت على وفاة حافظ ابراهيم ! فيا لَسرعة سير هذا الزمن المتعجل! ويا لقصر هاته الاعمار.

إنَّنِي لأَتَذَكَّرُ جيِّدًا الصَّيف من سنة 1932 حين نُعِيَ إلينا حافظ. فقد كنت إذ ذاك بالقيروان أكتب مقال «الشعر في تونس» الذي نشر في مجلة «العالم الأدبي». وفيه أذكر الأدباء التونسيين بأن الشاعر الحق هو الذي يكون في الطليعة يدل الامة على طريق الحرية ويهيب بها الى مقاومة الظلم والظالمين. وقد ضربت المثل على ذلك بشعرحافظ إبراهيم في مصر ومعروف الرصافي في العراق. وما إن أنهيت الكتاب حتى حملت إلينا جريدة «النهضة» نبأ موته فأشرت إلى ذلك في ذيل المقال.

لقد كان حافظ إبراهيم في نظرنا – نحن شباب 1932 – رمز الشاعر العظيم. وكنّا فريقين: فريقا يتعصّب لحافظ، وفريقا يتَعصّب لشوقي. وكانت المنازعات والخصومات لا تخلو من طرافة. ولم نكن في ذلك إلا صورة مصغرة من المنازعات والخصومات التي كانت تثار في مصر وفي كامل البلاد العربية حول هذين الشاعرين. ذلك أنهما كانا قطبي الشعر العربي في ذلك الزمن، وكان شعرهما يملأ دنيا الأدب، ويشغل أعمدة الصحف ويمكن القول بأنهما أخملا كل من عداهما من شعراء مصر وأغلب شعراء البلاد العربية على كثرتهم.

نعم! مضى ربع قرن على وفاة حافظ إبراهيم. وفي خلال ربع القرن

---

*) مجلة الفكر، أكتوبر 1957 بمناسبة ذكراه الخامسة والعشرين.

هذا جدّت على العالم العربي أحداث هزّت كيانه، وظهرت تيارات فكرية لا عهد للعرب بها، ونبغ شعراء ذهبوا بالشعر مذاهب جريئة، وأودعوه أحاسيس جديدة في قوالب مبتكرة، وتعابير متحرّرة من سيطرة الماضي، فكيف أصبح يبدو لنا حافظ بعد مرور هاته السّنوات الخمس والعشرين.

أقول بكل صراحة إنه أصبح بعيدا عنّا. إنه لم يعد يرضينا ولم نعد نجد عنده غذاء لعواطفنا وأرواحنا. إننا نقرأه اليوم فيستولي على نفوسنا السأم والفتور، ان الاغراض التي يتناولها في شعره لم يعد يهمنا منها إلا الجانب التاريخي، وان المشاكل والمآسي التي يحدثنا عنها تظهر لنا هينة ليّنة الى جانب المشاكل والمآسي التي يتخبّط فيها العالم العربي اليوم بعد كارثة فلسطين وحرب الابادة في الجزائر. ومؤامرات السّاسة الغربيين على ثروات الشرق العربي واستقلاله.

أجل! لم يعد يروقنا من حافظ غضباته الفاترة، وحماسه المتّزن، وشكواه الهزيلة يصوغها في أسلوب ناعم حريري لايكره أن يتسلى ويتلهى – بعض الاحيان – بالمحسنات البديعية والقوالب الجوفاء.

لقد أصبحنا نريد من الشاعر ان يكون ثائرا، ومن الشعر أن يكون ثوريا. اصبحنا لا نستطيع قراءة الشعر الفاتر إذا قيل في الاغراض السياسية والاجتماعية. أصبحنا نريد من الشاعر أن يكتب أشعاره بلهجة نارية مدمّرة أو يسكت سكوت القبور، والحقيقة أن بعض أشعار القدامى وبعض الشعراء الأقدمين هي أقرب الى نفوسنا من شعر حافظ، وان بَعُدَ أصحابها في الزمن. فغضبات المتنبي مثلاوهمزات أبي العلاء للمتسلطين، وهجاء ابن الرّومي لاعداء الشّيعة ما زالت تثير في نفوسنا أيّ أصداء، وتقدم لعقولنا متعا فكرية حقيقيّة. ذلك ان أصحابها طبعوها بطابع ثوري أو إنساني لا يؤثر فيه مرور الزّمان وتعاقب الاجيـال.

إذن فما هو مكان حافظ في الادب العربي؟

ليس من غرضنا ان نكتب دراسة عن أدب حافظ، أو نعقد مقارنات بينه وبين شعراء عصره، فلقد قيل كل شيء عن حافظ في حياته وفي خلال هاته الفترة التي مرت بعد وفاته . إنما نقول - بايجاز - أن ظهور حافظ في فترة معينة من تاريخ الامة العربية ، كان ضرورة من ضروريات كفاح الشعوب ضد الظلم والاستعمار . ان الكوارث القوميّة تُوجد الشاعر الذي يهيب بالأُمة ليوقظها من سباتها، ويبعث فيها الوعي بذاتها أو - ان كانت واعية يقظة - ليعبِّر عن شعورها وتَوْقها الى حياة الكرامة والحريّة حتى إذا قضت وَطَرها ووصلت الى غايتها بقي الشاعر قائما في التاريخ يدل على المراحل، ويذكر بالطريق المقطوع .

ان حافظاً لم يكن من طراز أولئك الشعراء الصالحين لكل زمان ومكان، الذين يستطيعون أن يقدموا للانسانية في كل أطوارها وأجيالها غذاء فكريا وزادا روحيا ونورا - لا يزداد مع مرور الايام- الا سطوعا وإشعاعا، بل كان الشاعر الذي تنبته البيئة لغرض من الأغراض، وتفرض عليه ظروف زمانه وظيفة من الوظائف ، حتى إذا فات الغرض، وانتهت الوظيفة سكت الشاعر ولم يعد عنده ما يقول- وقد سكت حافظ فترة طويلة من الزمن رضي فيها بالوظيف الحكومي وخضع للقيد، وهو الذي كان مفروضا عليه أن يفرّ من كل قيد .

لا نكران ان حافظا - رحمه الله - كان شاعرا نافعا، وإنه أسهم بقسط كبير في إيقاظ الامة العربية وبعث وعيها السياسي والقومي، ولا نكران انه كان ابن الشعب البار وترجمانه الصّادق في التعبير عن غضبه ورضاه ، وآلامه وآماله في وقت لم يكن الشعب يدخل في اهتمامات الشعراء، ولكن كل ذلك لا يكسب حافظا - في رأينا - المكانة التي تجعلنا نرى فيه عبقرية من أنصع العبقريات الشعرية العربية في العصر الحديث أو نرى فيه قائدا وإماما يستطيع ان يلهب حماسنا ويغذي ثورتنا

في هذه الآونة التي يتلمس فيها العالم العربي طريقه ويستقبل عهدا جديدا لا عهد له بمثله في ماضيه الطّويل.

ذكرى شوقي

تستعد دوائر مصر الأدبية والفنيّة للاحتفال بذكرى مرور ست وعشرين سنة على وفاة شوقي، فقد توفي في 14 اكتوبر 1932 أي بعد وفاة حافظ ببضعة شهور.

وفي خلال هذا الرّبع قرن لم يفتأ المصريون – ولا النّاطقون بالضّاد – يذكرون شوقي إما بالحديث عن شعره أو عن حياته أو سماع شعره الذي يغنّيه أكبر المغنين في مصر والأقطار العربية . ولا عجب ان يتعلق المصريون بشاعرهم كل هذا التعلق، ويكبرونه كل هذا الإكبار . فإنه مما لا شك فيه أن مصر لم تنجب في كل عصورها شاعرا أعظم منه وأكثر شهرة في العالم العربي. ومنذ أن وقر في نفس المصريين أنهم لم ينجبوا شاعرا ضخما يقف إزاء بعض شعراء العراق مثل الشريف الرّضي والمتنبي، أو شعراء الشام مثل البحتري وأبي تمام، أو شعراء الاندلس مثل ابن زيدون وابن هانيء فقد ظلوا رازحين تحت ثقل هذا المركب حتى نبغ شوقي فارتفع به النقد الحديث الى مرتبة أولئك الفحول. وتنفس المصريون الصعداء حين بايعت سائر الاقطار العربية شوقي بإمارة الشعر الحديث – إن صح أن للشعر إمارة – وكأنما اعترف الجميع بانتقال زعامة الشعر الى القـــاهرة .

وفي هاته الذكرى السادسة والعشرين نريد ان نستخلص بعض العبر من حياة شوقي الأدبية ، لأن كل ما يمكن أن يقال عن أدبه وشعره قد

---

*) مجلة الفكر – اكتوبر 1958 – بمناسبة ذكراه السادسة والعشرين .

قبل خلال هاته السّنوات الماضية ؛ على أننا نرى من المفيد أن نلمّ بأهم مراحل حياة الشاعر لنذكّر بها من لا تسمح لهم ظروفهم بالرّجوع إليها في مظانها، ولنعرّف بها من لا يعرفها من شباب المتأدبين.

ولد شوقي في سنة 1868 من عناصر متشابكة ليس فيها شيء من العنصر المصري الخالص، فجده للأب من أصل عربي شركسي، وجده للأم من أصل تركي، وجدته من أصل يوناني. وتربى في القصر الخديوي مع جدّته اليونانية في حجر الخديوي إسماعيل، وأدخل الكتاب في سن الرابعة ثم الى مدرسة المبتديان ثم التجهيزية حيث تخرج فيها وعمره خمس عشرة سنة . ثم ألحقه أبوه بمدرسة الحقوق سنة 1885 والتحق فيها بقسم الترجمة ومنح الشهادة النهائية وتوظف في ديوان الخديوي توفيق. ورأى هذا أن يوفده في بعثة الى فرنسا فاختار دراسة الحقوق وبقي ينتقل بين مونبيليه وباريس ولندن حتى حصل على الاجازة النهائية في آخر سنته الثالثة فرجع الى وطنه وعيّن مترجما في السّراي ولكن نبوغه في الشعر قرّبه من الخديوي عبّاس الذي أوكل إليه كثيرا من المهام وقدّمه على جميع رجاله. وما زال يعمل معه حتى نشبت الحرب العالمية الاولى سنة 1914 ومنع عبّاس من دخول مصر وأبعد أصحابه، ونفي شوقي الى إسبانيا حيث ظل طوال الحرب في برشلونة ورجع الى مصر عقب ثورتها الوطنية سنة 1919 وقوبل بحماس من طرف الوطنيين. ومن هذا الحين اتجه شوقي الى الشعب واختلط به في النوادي والمقاهي والمطاعم. وأول عبرة نستخلصها من حياة شوقي هي أن هذا الشاعر قضى حقبة من حياته (عشرون عاما) في عزلة عن حياة مصر وآلامها وآمالها. لا همّ له إلا الدعاية لسياسة الخديوي عبّاس عند الجمهور وفي الصحف يميل مع ميوله ويعتنق ما يعتنقه سيّده من المبادئ السّياسية، «ويغني له ما يشاء من النغمات». لم تكن له غاية من قول الشعر الا الظفر برضا وليّ نعمته أو التحصيل

على رتبة من الرتب التشريفاتية، أو قضاء حاجة من حاجات طلاب الرتب والوظائف، أو نيل مال يعيش به مرفّهاً منعّما بين منزله في مصر «كرمة ابن هانيء»، ومنزله في الاسكندرية «درة الغوّاص» . لكن هاته الحياة ـ لو استمر عليها ـ لم تكن لتجعل منه أكثر من شاعر بلاط يتكلّم بلسان غيره ويعبّر عما يحب أميره أن يعبر عنه ويعيش ـ الى ما شاء الله ـ في برجه الذهبي عيشة أرستقراطية بعيدا عن الشعب مجهولا منه ؛ ولكنه لحسن حظه لم يطل الإقامة في هذه العزلة. فحين رجع من منفاه بإسبانيا رأى بلاده قد قامت بثورة وطنية (سنة 1919) سالت فيها دماؤهم، وتبلورت أفكارهم، فأصبحوا يطلبون الحرّية ويودّون التخلّص من الاحتلال الأجنبي. فجاشت في نفسه آمال شباب مصر، ثم التفت إلى بقية البلاد العربية فرآها هي الاخرى ترزح تحت قيود المستعمرين، وتضطرب بين أيديهم طالبة الانطلاق والحرية. فأحس شوقي بأن شعره يجب ان ينصرف الى التعبير لا عن آلام مصر وحدها بل آلام العالم العربي كله.

فنحن في الشرق والفصحى بنو رحِمٍ ونحن في الجرح والآلام إخــوان

فأخذ يرسل هاته الآيات الفنيّة محلقة في سماء الوطنية حتى ليمكن القول أن نعدّ شوقي من روّاد هــاته «القومية العربية» التي اكتسحت اليوم مسرح السياسة، وأصبحت حديث المدائن والقرى، واستطاعت بمفعولها السّحرى أن تستفتح كثيرا من المغـالق.

والعبرة الثانية ـ أو على الأصح الميزة الثانية ـ هي أن شوقي حين انضم الى صفوف الوطنيين أصبح يتكلم بلسانهم، ويعبر عن رغباتهم، ويستوحي أفكاره من الأفكار الغالبة في الأوساط السياسية والحزبية دون أن ينضمّ الى حزب معيّن بل ربما ظهر في بعض الأحيان بمظهر الحكم الذي ينعى على الاحزاب تشاحنها ويحاول توحيد كلمتها:

إلامَ الخلــف بينــكــم إلام وهذي الضجـة الكبرى عـلام؟

ويمكن القول بأن شوقي في طوره الوطني كان أشبه شيء بشاعر القبيلة في العهد الجاهلي لايحيا الا لها،ولا يعبر الا عن آرائها ورغباتها، ولا يدافع إلا عن مصالحها، ولا يشيد الا بفضائلها لكي تسبغ عليه القبيلة ـ بدورها ـ رعايتها وتعدّه شاعرها ولسانها، وتباهي به سائر القبائل لا فرق في ذلك بين شاعر الجاهلية وشاعر العصر الحديث إلا أن شاعرنا كان أوسع دائرة فكر، وأكبر رقعة أرض من شاعر القبيلة الذي لا يتسع شعره الى أكثر من قبيلته. فشوقي أبعد الشعراء عن الشعر الذاتي الذي تتبيّن فيه عواطف الشاعر الشخصية وميوله، وما يحب وما يكره من الأشياء والاشخاص.

لم تكن لشوقي عواطف الا ما يستوحيه من الازمات السّياسية والأحداث الهامة. ولم تكن له ميول إلا ما يميل إليه الرّأي العام ويتطلبه زعماء السياسة. ولم يكن يُبغض أو يحب إلا ما يُبغضه المجتمع المصري أو يحبه، فهو يغني للشعب ما يشاء من النَّغمات، كما كان يغني للخديوي ما يشاء من النغمات. وهذا يفسر لنا بعض الشيء عجب الناس من أنه لم يأت بعد شوقي من يخلفه أو يقوم مقامه، وما دَرَوْا أن الشعراء بعد شوقي قد أبوا ـ فيما يخيل إليّ ـ ان يكونوا الآلة التي يوقع عليها غيرهم ما يشاء من الألحان، وأن شوقي كان آخر من يمثل هاته النزعة «الغيرية» في الشعر وهو على عتبة دخوله الى النزعة الرّومانسية.

والميزة الثالثة هي أن شوقي لم يكن يطلب من قول الشعر إلا المجد الأدبي، ولاشيء غير المجد الأدبي. والذين يتساءلون لمن يكتب الأديب وينظم الشاعر يجيبهم شوقي بكل صراحة أنه ينظم لمن يسبغون عليه هذا المجد، ويعدّونه «شاعر القبيلة» دون مدافع، إن المتتبع لحياة شوقي الأدبية وأطوارها يلاحظ في سهولة ويسر هذا التطلب للشهرة والمجد الأدبي والدفاع عنه دفاع المستميت، والغيرة عليه من كل متطاول أو مهاجم، فشوقي في حياته الخاصّة رجل عادي. وربما تكلف بعض كتّاب

سيرته ممن عاشروه الاعتذار له عن هفوات أخلاقية وطبائع عامية. ولكنّه في حياته العامة كان قانصا ماهرا يتصيد الفرص لينظم في الحادث الذي يتحدث به كل الناس، ويمدح الشخصية الدينية والاجتماعية التي يقدّسها الجمهور، ويرثي من يهزّ موته المشاعر العامة حتى يكون ذكر الحادث مقرونا بذكره، وشهرة الشخص مغذية لشهرته - وقصيده هو خلاصة ما يروى ويقال في ذلك الامر - ومن هنا نفهم لماذا كان شوقي يغدق على أصحاب الصحف النقدية(1) التي يخشى تطاولها عليه رغم شحه بالمال في مواطن أخرى؟ ولماذا كان يخاف النقد خوفه من الموت؟ ولا شك أن أمرّ فترة مرّت به في حياته هي الفترة التي تصدّى له فيها العقاد بنقده الشهير في كتاب «الدّيوان».

وفي رأيي أن شوقي سوف يبقى مقروءا الى جانب فحول شعراء العربية لا بالموضوعات التي نظم فيها، ولا بالأفكار التي أتى بها بل من أجل أسلوبه الشعري وموسيقى نظمه الرّائعة. وهو أصدق مثال لقولة النّاقد الفرنسي «فاقه Faguet»: إن جمال الأسلوب هو الذي يُخلّد.

لقد حاول النقاد ان يصدّوا الناس عن شعر شوقي، ولكنه كان يجلبهم إليه بسحر موسيقاه الأخّاذة التي ترن في الآذان وكأنها سمفونيات خالدة.(2)

وممّا لا شك فيه ان شوقي أبرع الشعراء وأقدمهم حسّا في اختيار اللفظة الموسيقية والصورة الشعرية المتألقة.

ومهما يكن من أمر فشوقي يعد مفخرة من مفاخر الشعر العربي، وسيظل كذلك الى ما شاء الله.

---

1) حياة شوقي لاحمد محفوظ ص 64

2) شوقي ضيف في «شوقي شاعر العصر الحديث» ص 301

كلمة عن إيليا أبي ماضي

رحم الله أبا ماضي . لو مات قبل ربع قرن أو نحوه لأحدث موته رجة في المحافل الأدبية لا تقلّ عن الرّجة التي أحدثها موت شوقي. ذلك أن الرّومانسية كانت في أوج قوتها وانتصارها في الادب العربي المعاصر .

كان الشابي في تونس ، وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي في مصر، وأبو شبكة في لبنان، والتجاني بشير في السودان، وإيليا أبو ماضي وصحبه في أمريكا من أقوى دعائمها وأكبر ممثليها في العالم العربي. وكان العالم العربي حينذاك رومانسي الرّوح في حيـاته الفنية . وكانت قصائد أبي ماضي تعد ـ حين صدورها ـ حدثا أدبيا. فكانت تتناقلها الصحف، وتتدارسها النّوادي، وتستنسخ في الكناشات كأنفس الأعلاق. وكان جيل 1927 وما بعدها ـ وكاتب هاته السطور منهم ـ مفتتنا بشعر أبي ماضي، يبحث عنه في كل مكان وينقله حيثما ظفر به، ويحفظه عن ظهر قلب، ويود ـ بكل شوق ـ الظفر بديوان الشاعر من نيويورك، ولو بذل في ذلك المال والجهد. وهيهات أن يصل إليـه .

نعي أبو ماضي منذ أشهر فلم يثر نعيه الا أصداءً خافتة في الصحف والمجلات الأدبية والمحافل الشعرية . وكانت كلمات التأبين جانب اللياقة فيها أظهر من جانب التقدير والتفجع .

فهل معنى ذلك أن عصر الرّومانسية قد انقضى ، وأننا ودعنا بوداع أبي ماضي آخر شاعر رومانسي في العربية .؟

---

*) مجلة الفكر : افريل 1958 بمناسبة وفاته سنة 1957 .

ـ نظرة في شعره:

إن أول ما يبدهك من شعر أبي ماضي نزعته الباسمة المحبة للحياة أو ما يسمونها بالتفاؤلية، فالقصائد والأبيات التي يريد الشاعر أن يقنع فيها الناس بترك الشكوى من الحياة، وتقبل آلامها بعدم التوجع، والبحث فيها عن جوانب الجمال، كثيرة تكاد تستوعب أغلب شعره. وهي على كل لسان بل هي من محفوظات أطفال المدارس.

فهو الذي يقول : كن جميلا تر الوجود جميلا.

والذي يقول : والذي نفسه بغير جمال لايرى في الوجود شيئا جميلا

وهو القائل :خلّ البكا ياصاحبي والأسى الليل لا يقصيه عنك النّحيب

وفي قصيدة «عش للجمال» يقول :

عش للجمال تراه العين مؤتلقا في أنجم الليل أو زهر البساتين
وفي الرّبى نصبت كف الاصيل بها سرادقا من نضار للرّياحين
خير وأفضل ممن لا حنين لهم الى الجمال تماثيل من الطين

ولكن المتأمل في هذا التفاؤل يبدو له وكأنه نوع من الخداع يخدع الشاعر به نفسه أو غيره، وأنه لا يعدو ان يكون هروبا من عالم الواقع المؤلم خصوصا لمن كان مثله في غربة وجهاد لأجل العيش.

ان الشاعر يفزع من رؤية الأشياء كما هي في الواقع، فيضعها في عالم محلى بالرّؤى، مزخرف بالأوهام والأحلام :

« إن التفكر في الحياة يزيد أوجاع الحياة ».

إذا أنا لم أجد حقلا مريحا خلقت الحقل في روحي وذهني
فكادت تملأ الأثمار كفي ويعبق بالشذا الفوّاح رُدْني

أليس من باب التعلل وخداع النفس قول الشاعر :

كل نجم الى الأفول ولكن آفة النّجم أن يخاف الأفولا

حقا إن أبا ماضي ليخدع صاحبه حين يقول له : «ابتسم» :

قال السَّماء كئيبة وتجهمـــا قلت ابتسم يكفي التجهُّم في السَّما

ذلك ان الابتسام والتفاؤل غريبان عن الروح الرومانسية . ان نفس أبي ماضي نفس حزينة كئيبة اذا هو أرسلها على سجيَّتها ولم يتكلف التفاؤل، فهو الذي يقول :

وكيف اغتباط المرء لا أهل حوله ولا هو من يستعذب الصَّفْوَ نائيـا

ويقول أيضـا :

لا أرى لي من همومي مهربـا فهي في هذا وذيَّاك الطريـــق

وفي قصيدة «يا نفس» يخاطب نفسه الحزينة الباكية :

مالك ياهذه لا تضحكين للحبب الضَّاحك في الكاس

ويحك لا في عزلتي تطربين ولا إذا كنت مع النَّاس

وفي قصيدة «وقائلة» تجد نفس المرارة والكآبة . فلقد سألته صديقة عن سبب صمته ووجومه، والدنيا حوله جميلة مغرية، والشباب عنده في ريعانه فأجابهـا :

فما حطمت يد الأيام روحـي وان حطمت أباريقي ودَنِّـي

ولم أعقد على خوفٍ لسانـي ولا ضَنًّا على الدنيـا بفنـي

ولكنِّي امرؤ للنَّاس ضحكـي ولي وحدي تباريحي وحزنـي

وهكذا يأبى أبو ماضي إلا ان يكون رومانسيا، وان تظاهر بالابتسام والبهجة ودعا إليهما .

وأبو ماضي كثير التناقض والحيرة في شعره، متردد بين الايمان والكفر شاك في ما يحسبه الناس حقائق ومسلمات . ولنضرب لذلك مثلا برأيه في الانسان ومصيره، فنحن نراه في قصيدة «الطين» يفضل الطبيعة على الانسان ويرفع من قدرها بقدر ما يحقِّر من شأنه ويحط من قيمته :

نسيَ الطين ساعة أنه طينٌ حقير فصال تيها وعربـد

وكسا الخزّ جسمه فتباهـى وحوى المالَ كيسُه فتمـرّد

وفي قصيدة «الشاعر والسلطان الجائر» يثبت العجز للسلطان المتكبر المعتز بقوّته وجبروته، ويسمّيه «الكائن المغرور»، ويذكره بأن النملة والعنكبوت أبرع منه وأحكم ـ يقول الشاعر للملك الجائر:

ولقد نقلت لنملة ما تدّعــــي   فتعجّبت مما حكيت كثيــرا
قالت صديقك ما يكون؟ أقشْعَماً   أم أزّقما أم ضيّغما هَيْصُولا؟
أيحوك مثل العنكبوت بيوتَــه   حوْكا ويبني كالنسور وكــورا

والانسان عند أبي ماضي مجنون تشغله رؤية جلاله وجماله عن رؤية جمال الليل وجمال الشهب:

ليس جلال الليل ما أدهشنــي   وإنّما أدهشنــي جلالـــــي
ولا جمال الشهب ما حيّرنــي   وإنّما حيّرنــي جمالـــــي
إن كانَ بي شـوق إلى وصـــال
فإنّمـا شوقي الى خيـالـــــي

والانسان «إله ثرثار» يحسب نفسه كل شيء وإنما هو في الكون جزء من الكون، مثل الثرى والنبت والحصى.

زعـم المرء إنمـا هـــو ربّ   كم يلـوك الكـلام هذا الالهُ
في التّراب الذي تدوس عليـه   ألف دنيا وعالم لا تـــراه
أنت جزء من الكيـان وفيــه   كثـراه كنبتـه كحصـاه

ولكنه في قصيدة «العليقة» يعود ويعلن إيمانه بالانسان، وبجدوى جهوده في الحياة، ويؤمن بالمجد ويسعى له حتى في السّراب، بل ويجد لذته في العذاب:

ان عـودا فيـه مـــاء   ليس عودا لاحتطـــابِ
أنــا في فجر حياتــــي   أنا في شــرخ شبابـــي
أنا لم أضجر مـن العيـــش   ولـم أملَلْ صحـابـــي

وفي قصيدة «التّينة الحمقاء» التي أبت ان تقدم ثمرها ضنّاً به

على الناس، كما أبت ان تجود بظلها للطير والبشر، وقالت انها ستفصل ظلها على جسدها وتحبس عوارفها على ذاتها، فانكمشت على نفسها. وكانت نهايتها ان اكتسى الشجر كله في فصل الرّبيع، وظلت التّينة عارية يابسة، فاجتثها البستاني من أصولها ورماها للنّار، لأنها صارت عديمة النّفع رافضة لفكرة الأخذ والعطاء.

وفي قصيدة «بردّي يا سحب» نراه يؤمن بالنّفعية، وبأنّ كل شيء في هذا الوجود يجب أن يقوم بالوظيفة التي خلق من أجلها وإلا فهو لا يستحق البقاء:

كل نجم لا اهتداءَ بـــــه   لا أبـالي لاح أو غرَبـــــا
كل نهر لا ارتــواء بـــــه   لا أبالي سـال أو نضبـــــا

وهكذا نجد أبا ماضي في خاتمة المطاف ينقلب من الرّومانسية الحالمة والصوفية الذاهلة الى الواقعية الأرضية. كما ينتهي به الامر بعد الهزء بعجز الانسان وجنونه الى الايمان بجدوى جهوده في المجتمع، فكل من يرفض القيام بوظيفته في الحياة كان مصيره مصير التينة الحمقاء.

ويضيق بنا المقام لو رحنا نستعرض القضايا الفلسفية التي أثارها أبو ماضي في شعره، والتي تراه لا يستقرّ فيها على حال، ولا يحاول ان يجيب عنها أو يجد لها حلولا، بل لا نجد إلا الحيرة والتنافس والاضطراب. وما قصيدة «الطلاسم» إلا مثال على حيرته واضطرابه، فإنه يثير المشكلة ويعقبها بأسئلة عديدة محيِّرة، ويستعرض لها أجوبة متعددة دون أن يختار واحدا منها، بل يختمها باللازمة «لست أدري».

ـ التأمل العاطفي في الطبيعة:

من أهم الموضوعات التي يتناولها الأدب الرّومانسي مسألة التأمل العاطفي في الطبيعة. ولم يشذ شعراء العرب الرّومانسيون ـ ولا سيما

شعراء المهاجر عن هذا المذهب ـ فالطبيعة من أهم وأوسع الموضوعات التي طرقوها في أشعارهم ونظرتهم إليها هي النظرة التي يتبادل فيها الشاعر العطف مع الطبيعة ويقف أمامها وقفة الكائن الخاشع أمام الكائن الجليل على حد تعبير الشابي.

والطبيعة عند الشعراء الرّومانسيين ـ هي كما يقول العقاد ـ قلب نابض وحياة شاملة ونفس نحن إليها ونأنس بها، وذات نساجلها العطف ونجاذبها المودة. ولا شك ان أبا ماضي كان من أكثر الشعراء المهجريين حديثا عن الطبيعة، وقصائده في هذا المجال كثيرة وشهيرة، وربما رمز شعراء المهجر الى الطبيعة بكلمة «الغاب» التي يكثر ترديدها في أشعارهم والتي تتضمن دعوتهم الحارة للرجوع إلى الطبيعة، والتمرد على قيود الحياة المدنية ومظاهر النفاق والزيف فيها. فمن قصائده الشهيرة في هذا الباب القصيدة التي أولها:

سئمت نفسي الحياةَ مع الناس وملّت حتى من الأَحبابِ

والتي يقول فيها:

قالت اخرج من المدينة للقفر ففيه النجاة من أوصابي
وَلْيَكُ اللّيل راهبي، وشموعي الشهب، والارض كلها محرابى
وكتابي الفضاء أقرأ فيه صوراً ما قرأتها في كتاب.

ومن أبدع قصائد أبي ماضي قصيدة «المساء» وفيها يخاطب الشاعر صديقته التي جزعت لذهاب نور النهار، ومجيء ظلام الليل، بوحشته ومخاوفه. فهو يقول لها: لِمَ الجزع والحيرة ولليل جماله وسحره:

لكن لماذا تجزعين على النهار وللدجى
أحلامه ورغائبه
وسماؤه وكواكبه

ويقول لصاحبته: إن غاب عنك الجمال ولفّه الليل في برقعه الاسود،

مساويا في ذلك بين الجميل والقبيح فهناك الجمال الذي يتجلّى في الليل:

فاصغيْ الى صوت الجداول جاريات في السفوحْ
واستنشقي الازهار في الجنات ما دامت تفـوح
وتمتّعي بالشهْب في الأَفلاك ما دامت تلـوح ...

ومن قصائده البديعة قصيدة «ليل الأَشواق»:

رب ليل نجومه ضاحكـــات مثل أحلام غادة في صباهـــا
لمست إصبع السكينة أشواقي فهبت مذعورة من كراهـــا

ويحدثنا أبو ماضي في «الجداول» عن زهرة أقحوان يرى فيها سرّا من أسرار قلبه التي دفنها في الغاب، وفي صباح يوم ساقه روح خفي نحو ذلك المكان الذي دفن فيه سرّه

فاذا بالسِّـر أضحـــى زهـرة من أُقحـــوان

«والسجينة» هي زهرة جناها ولوع بالزهور وأودعها حُجرة من أحسن حُجَر قصره «لتشبع منها أعينٌ وقلوب». وقد أوحى له مصير هاته الزهرة من معاني التفجع والرثاء ما جعلنا نرثي - بدورنا - لحالها، ونبكي لمصرعها، ولنهايتها الحزينة حين تلقى في المزبلة وتداس بالنِّعال:

إسارُك - يا أختَ الرّياحين- مُفْجع وموتك - يا بنتَ الربيع- رهيب
ولكنها الدنيـا، ولكنه القضـا وهذا لعمري مثل تلك غريـب

وهو يحتفل حتى للفراشة، فيصفها أرقّ وصف، ويحدثنا عن صبية كانوا يجرون وراءها وهي تفلت من أيديهم وتنتقل من زهرة الى زهرة حتى إذا أتعبت الصبيان وأتعبت نفسها أحست بالموت يتمشى في كيانها فإذا هي واهية القوة، مسترخية الجناحين، تعاني النزع والحشرجة، وإذا الشاعر يرثي لها ويكتئب لما أصابها، ولا يلبث أن يقارن مصيرها بمصير البشر أجمعيـن:

فراشة الحقل في روحي كآبته ممّا عراك ومما قد تـــولاّك

«أقدر اللهَ أن يحييك ثانيــة   مع الرّبيع كما من قبلُ ســوّاك
فيرجع الحقل يزهو في غلائله   وترجعين وأغشاه فألقـــاك

ورغم أن أبا ماضي قد فارق وطنه لبنان وهو ابن احدى عشرة سنة ولم يرجع إليه إلا غداة عزمه على الرحيل الى أمريكا سنة 1911 حيث قضى فصل الصيف هناك، ثم ظل بعيدا عنه ما يزيد على ثلاثين سنة (1)، فإنه لم ينفك مشيدا بجماله، واصفا له في شعره مثل بقية شعراء المهجر وصفا يزيده الحنين والشوق حرارة وإبداعا، فهو لا يفتأ يذكر أمسياته في الصّيف وثلوجه في الشتاء، وسماءه المرصعة بالنُّجوم، وصباياه المرحات في الحقول، لبنان:

نشتاقه والصَّيف فوق هضابه   ونحبه والثلج في واديـــه
وإذا تمد له ذُكاءُ حبالهـــا   بقلائد العقيان تستغويـــه
وإذا تنقطه السماء عشيّـــة   بالأنجم الزّهراء تسترضيـه
وإذا الصبايا في الحقول كزهرها   يضحكن ضحكا لا تكلف فيه

وفيها يقول هذا البيت القوي المؤثر:

وطني! ستبقى الأرض عندي كلها،   حتى أعود اليه، أرضَ التّيـــه

ومن روائع شعره في هذا المجال القصيد الذي قاله في تكريم صاحب «المقتطف» وفيه يتحدث عن لبنان:

ما ثمّ من ذكرى اذا خطرت على   قلبي استراح سوى خيال الوادي
أفلا تزال الشمس تصبغ وجهه   بالورس آونة وبالفرصـــاد
أفلا يزال يذوب في أمواجـــه   ذهب الأصيـل وفضـة الآراد
لهفي اذا ورد الرّفاق عشيّـــة   وذكرت أني لست في الـورّاد

وفي «الخمائل» قطعة أخرى تتحدث عن جمال لبنان بعنوان «تأملات» منها:

الشهب أسطعها التي في أفقها   ليس الجلال الحقّ غير جلالهـا
وأحب غيث ما همى في أرضها   حتى الحيا الباقي على أطلالهـا

1)- زار الشاعر لبنان سنة 1948 لحضور مؤتمر اليونسكو.

فن أبي ماضي ورأي معاصريه فيه:

بدأ حياته الأَدبية مقلدا ما يقرأ من قصائد القدماء، معارضا لأَشهرها. وكثيرا ما يختار البُحور الطويلة، والأَوزان الصعبة. وقد اكتسب أبو ماضي ثقافته من الكتب والدواوين شأنه في ذلك شأن البارودي الذي كان أحد أساتذته في نظم الشعر. ويتفق مترجموه على إنه لم يتمّ حتى دراسته الابتدائية بل كان يدرس بنفسه اللغة والنحو وبعض مبادىء العربية. ويمكن اعتبار ديوانيه الأَولين نتيجة هاته الدراسة الذاتية فهما محاولتان في الشعر قد فشل الشاعر في أغلب ما جاء فيهما من القصائد، حتى إذا اتصل أبو ماضي بأعضاء الرّابطة القلمية ظهر التحول واضحا تماما في تفكيره وفي أسلوب شعره، وبدأت شاعريته تبرز بجلاء في «الجداول» لتكمل وتتألّق بكل أنوارها في «الخمائل».

لقد سار أبو ماضي في الجداول مدى بعيدا في التحرر والانطلاق، وخطا خطوات شاسعة في الابداع والتفنن، فاذا الأُسلوب سهل نقي، والالفاظ رقيقة، والأَفكار واضحة جلية، والمعاني طريفة مركزة، وإذا القوافي متعددة، والبحور مجزوءة، والعبارة مبسطة، حلوة الجرس.

ومع هذا التطور والانطلاق ومع هاته «الفتوحات» في عالم الشعر الحديث، فإننا نرى بعض النقاد في مصر – وفي غيرها – لا يرضون عن أبي ماضي وينقدونه بدون هوادة. فالدكتور طه حسين، في الجزء الثالث من حديث الاربعاء، يعنف على الشاعر ويقسو عليه فيحكم على لغته بالرداءة، وعلى صياغته بالوهن، ويقول انه يتورط في المعاني الفاسدة، وانه فاقد للحاسة الموسيقية، وانه كثيرا ما يقع في أخطاء نحوية، وان كان يعترف له في أثناء النقد بأنه شاعر مجيد حقا خصب الذهن نافذ البصيرة، ذكي القلب متقن الفهم لما يريد أن يقول، موفق الى إجادة التصوير لما يحب أن يصور.

والدكتور أبو شادي يمزج بين الاطراء والذم في تقدير أبي ماضى

ولكن جانب التعصب عليه والذم أظهر من جانب الاطراء. فهو يقول عنه (المقتطف 1952) : «وأبو ماضي من أقل شعراء المهجر أصالة. فهو دون جبران ونعيمة وأيوب وعريضة والشاعر القروي مثلا في الطاقة الشعرية الاصيلة وان كان أعذب من معظمهم لفظا، وأسلس بيانا. وأبو ماضي لا يعيش إلا في جوانب قليلة من شعره أهمها محبة الحياة والتمتع بها، وان جانبا غير قليل من نظمه- الذي لا يمثل أية رسالة له يحيا لها ويحيا فيها- هو من قبيل الرّياضة الذهنية فحسب...»

والظاهر أن أبا شادي - رحمه الله - كان يضيق بمكانة أبي ماضي وسيرورة شعره، فنضل عليه شعراء لا مجال للمفاضلة بينهم وبينه.

وممّن كتبوا عن أبي ماضي الاديب الاردني عيسى الناعوري. فقد خصّه بكتاب أسماه «إيليا أبو ماضي رسول الشعر العربي الحديث»، والاديب السّوري زهير ميرزا له كتاب «إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر» والاديب العراقي نجدة فتحي صفوت وكتابه بعنوان «إيليا أبو ماضي والحركة الأدبية في المهجر» ويقول جبران عنه في مقدمة المجموعة الثانية لشعره التي ظهرت سنة 1919 «وإيليا أبو ماضي شاعر وفي ديوانه هذا سلالم بين المنظور، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التي إن لم ترشفها تظل ظمآن حتى تمل الآلهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان».

ويقول ميخائيل نعيمة عنه في مقدمة الجداول: «فبين هاته الجداول ما تنسكب معه روحي مترقرقة مترنمة مطمئنة جذلة بنور في عينيها، وجمال على جانبيها، مرحة بحرّية لا أرصاد عليها ولا قيود، ومدى لا آفاق له ولا حدود».

وسوف يمرّ الزمن معفّيا على المنافسات والعصبيّات، ولا يبقى إلا شعر هذا الشاعر الفذ يحتل أسمى مكانة في ديوان الأدب العربي الحديث.

خطرات وشذرات

1 ـ حرية الفكر بين الماضي والزمن والحاضر

قال لي صاحبي وهو يحاورني: ما أسعد أدباء هذا العصر، وما أعظم حظهم! فهم يعيشون في عصر تسامح يُكرم فيه العقل، وتُجلّ حرية الفكر. وهذا أمر لم يكن يحلم به أدباء العصور الماضية حين كانت حياة الشاعر أو المفكر في يد خليفة مستبد أو أمير جاهل أو وزير مغرض، وحين كان مجرّد التهمة أو الوشاية الدنيئة كافيا لإهدار دم المفكرين الأحرار في تلك العصور المظلمة.

فقلت لصديقي: غفر الله لك ـ يا أخي ـ أتظن أن العصر الحاضر عصر تسامح وحريّة، وأنه كما يقال عنه عصر علم ونور، وأن المفكر في الشرق يستطيع أن يبدي رأيا ليس من النوع الذي يراه عامة النّاس دون أن يناله أذى في جسمه أو في نفسه؟ أتظن حقيقة أنه لأجل أننا نعيش في القرن العشرين نستطيع أن نفضل عصرنا هذا على العصور التي سبقته، ونرثي لحال أولئك المفكرين الذين ذهبوا ضحية الاضطهاد والاستبداد. كلا يا صديقي! إنك إذا صدقت بهذا كنت واهما كل الوهم، مخطئا كل الخطإ. إن القرون الوسطى خير من عصرنا، والحياة الفكرية فيها كانت ألذّ وأمتع، ولست في حاجة لأن أقيم لك الدليل على أن الأديب اليوم يشعر بضيق شديد، وحرج من إبداء رأي يعن له مخالف للرأي الشائع، أو اعتناق مذهب غير مرضي عنه من بعض النّاس، وان اقتنع هو بصحته أو صلوحيته، هذا فضلا عن العمل لنشره أو تأييده أو الدفاع عنه، والاحتجاج له. فالشاعر في عصرنا الحاضر لا يستطيع

أن يعبر كما يشتهي عن فكرة جريئة خطرت له، أو الدعوة الى نوع من الأدب مغضوب عليه دون أن يقرأ حسابا للأضرار التي سوف تلحقه من تشيّعه لهذ المذهب أو تعبيره عن تلك الفكرة.

هل ترى من علامات الحريه أننا لا نستطيع اليوم أن نضع في تأليف ما وضعه الجاحظ في كتاب الحيوان من أدب مكشوف، أو نودع في كتاب أدب ما أودعه أبو الفرج الاصبهاني في كتاب الأغانى من فحش وأدب جنسي.

هل يقدر اليوم شاعر أن يقول عن حبيبته ما قاله أبو العتاهية شاعر الزهاد والنسّاك:

كأن عتابة من حسنها دمية قس فتنت قسّها
يا ربِّ لو أنسيتنيها بما في جنة الفردوس لم أنسها

وقوله:

إن المليك رآكِ أحسن خلقه ورأى جمالكْ
فحذا بقدرة نفسه حور الجنان على مثالك

وهل يستطيع شاعر في العصر الحاضر، يؤثر السلامة والعافية، أن يقول ما قاله أبو نواس الذي كان يرضى عنه النظام والجاحظ وأبو عبيدة:

ورأيت إتياني اللذاذة والهوى وتعجلا من طيب هذي الدّار
أحرى وأحزم من تنظرّ آجل علمي به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبّر أنه في جنة من مات أو في نار

وأين نحن من الحرية التي كانت للمعري في إبداء آرائه الصّريحة في المذاهب والديانات، أو من الصّراحة التي كان يكتب بها ابن خلدون مقدمته، ويقرر فيها رأيه في العرب.

وما قولك في الغزالي يُدافع عن الحلاّج، وفي دعبل الذي كان يهجو كل

عظيم في عصره، ويقول: أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة ولست أجد أحدا يصلبني عليهـا.

الحقيقة - يا صاح - أن الخلفاء والأمراء والعمال لم يكونوا يضطهدون حرية التفكير، ولم يكونوا يضيقون بالآراء والمذاهب المتطرفة، وإنما كانوا يضطهدون ويقتلون على السياسة. فبشار مثلا كان يتعرض للدين من قريب أو بعيد، وينظم الشعر الخليع الماجن المفسد للأخلاق، ويظل في ذلك ثمانين عاما، ولكن المهدي الذي أسرف في القتل يحميه ويتأول له الفقهاء ولم يقتله ضربا بالسِّياط إلا حين هجاه أقذع الهجاء وهجا وزيره يعقوب بن داود بالبيتين المعروفين: « بني أمية هبوا طال نومكم».

أما اليوم في عصرنا الحاضر فقد انقلبت الآية، وأصبح الاشتغال بالسياسة يصل بصاحبه الى مقامات الرئاسة، أما تعاطي شؤون الفكر فيقتل صاحبه قتلا، ويقضي عليه قضاء.

كان الخليفة أو الوزير يقتل على السياسة. أما اليوم فالجمهور هو الخليفة والوزير، وهو الذي يقتل على حرية الفكر أشد القتل، وينكل بالمفكر الحر أشد التنكيل. ولقد رأينا قوة هذا الجمهور في الشرق، وعرفنا قسوته وشدة بطشه. فلقد كاد يقتل شاعرا كالزّهاوي، وعالما كعلي عبد الرّازق، وأديبا كطه حسين. أما في تونس فقد قتل كمدا كاتبا كان يحلم بتحرير المرأة، وشاعرا أراد أن يحرّر الشعر العربي.

قلت ذلك وسكت فنظر إليّ صديقي، وبعد أن أطرق هنيهة رفع رأسه وقال لي في هدوء: صدقت.

لا قومية في الأدب

يقول لي بعض الناس : لماذا لا تتحدث في إذاعاتك إلا عن الأدب الفرنسي ، ثم يردفون سؤالهم بذكر السبب الذي جعلهم لا يرتاحون لتلك الأحاديث : فهذا لا يهمه إلا الأدب العربي، وذلك لا يفهم الأدب الغربي لغموضه، وذلك لا يرى أية فائدة في الحديث عن الآداب الأجنبية. وربما فهمت من كلام بعض الناس وإشاراتهم أنهم ينكرون على أديب عربي أن يصبح داعية لأدب غير أدب العرب، وأن له في ذلك لاشك غرضا مقصودا وغاية معينة . والمعتدل من مخاطبيَّ يفسر لي إنكاره أو عتابه بأنه يضن بمجهود كمجهودي على غير الأدب العربي، ويرى أنه من البرّ به أن يكون العمل له خالصا وحده .

وقد أجيب هؤلاء المتسائلين أو العاتبين بما يقتضي المقام، ولكني لا أدري لماذا تخطر لذهني – وأنا أدافع وأناقش – صورا تُخيل إليّ أن مثل هؤلاء كمثل سمك وضعته المقادير في بحيرة. فهو يظن أن كل الدنيا هي ما عنده في البحيرة، وانه ليس هناك خير من ذلك المكان . ولا لوم على سمك هاته البحيرة إذا اعتقد ذلك، واطمأن إليه، ولكنه ملوم كل اللوم إذا أنكر على من يقول له : ان بحيرتنا جميلة لا محالة ولكن لو خرجنا منها قليلا وذهبنا للمحيط لرأينا عوالم رائعة وأكوانا بديعة لم نكن نراها في بحيرتنا رغم ما فيها من جمال واتِّساع. وقد أجد وجها للاعتذار لمن يريدون أن يدخلوا القومية في الأدب ، ويرون أن كل عمل

* جريدة «الزمان» 1939

لا يشمل مظاهر هاته القومية عمل ضائع ومجهود عبث، ولكنني لا أفهم من يقول أن لا فائدة في الحديث عن أدب أجنبي فإنه – وأيْمُ الحق! لمن الخطل والغرور أن يعتقد امرؤ أن أدب أمة من الأمم كائنة من كانت هاته الأمة – وكائنا ما كان أدبها – هو في غنى عن الاقتباس والاستفادة من أدب أمة أخرى . فليس شيء في حاجة الى الاقتباس والأخذ من غيره كالآداب والفنون . وهذه تواريخ آداب الأمم نقرأها فنرى كيف تأخذ بعضها من بعض، وكيف تتأثر الواحدة بالأخرى ومعلوم أن كل نهضة قامت في آداب أمة كانت مسبوقة بحركة متسعة للترجمة والنقل. فالأدب العربي لم يكتسب هاته القوة التي اكتسبها في العصر العباسي، ولم يسم هذا السموّ في المعاني والتنوع في الأغراض إلا بفضل تأثر منتجيه بالثقافات المختلفة التي انحدرت إليه بعد ترجمة آثار الأمم المجاورة كالهند والفرس والرّوم أو نقل آثار الأمم القديمة مثل الاغريق واللّتين . والآداب الغربية بدورها تأثرت بالحضارة الاسلامية والفلسفة العربية. والأدب الفرنسي نفسه يدين بكثير من تطوراته ومدارسه الى أثر آداب الأمم الأخرى سواء في الشرق أو الغرب .

ثم إنه لمن الخسران والخسارة أن لا يستفيد أدبنا العربي على العموم وأدبنا التّونسي على الخصوص من أدب كالأدب الفرنسي هو من أغنى الآداب العالمية وأرقاها وأحفلها بالآيات الرّائعة، والأفكار السامية النبيلة. وقد سبقنا الشرق العربي إلى الاستفادة من هذا الأدب العالي في تشييد نهضته الحاضرة، واستغل نفائس الآثار في تربية ذوق الجمهور، وتوسيع آفاق الحياة لديه، كما استغله الكتاب أنفسهم في صقل أساليبهم الكتابية بالحرص على دقة التعبير، وترك التقعر والتفيهق.

وقد تساءلت كثيرا لماذا لم يظهر على إنتاج أدبائنا أثر محسوس لهذا الأدب مثلما يظهر ذلك في الأدب اللبناني أو المصري، بينما نحن

نعايش الأمة الفرنسية جنبا لجنب ويكثر بيننا المثقف بثقافتها ؟

تساءلت كثيرا عن هذه الظاهرة، وكأنني اقتنعت الآن بأن إدخال القومية في الأدب أو الغرور بهذا الأدب هو الذي قضى على الأدب التونسي بأن يظل منطويا على نفسه، قانعا بما عنده . والقناعة كما يقال كنـز لا يفنـى.

تقديس القديم

قال الكاتب اللاتيني كنتليان « Quintilon » :

«يجب أن نكون شديدي الحذر، كثيري الاحتراز في الحكم على آثار عظماء الرّجال خوفا من أن نقع في عيب ما لم نفهمه كما حصل ذلك لكثيرين، واذا كان لا بد من الميل الى مبالغة ما فالأفضل أن نأثم بالمبالغة لا في العيب والقدح بل بالمبالغة في الاعجاب بكل شيء في كتاباتهم».

هذا الرأي على قدمه ليس بقديم - فالأوائل كانوا ولا يزالون محل التقديس والإجلال ممن يخلفهم ويأتي بعدهم. وكل جيل من الأجيال يعيش في زمن من سبقه بالفكرة أكثر مما يعيش في زمنه الحاضر. ومن هنا كان المتعارضون لا ينصفون بعضهم، ولا ينصفون عصرهم ولو كان من أعظم العصور، وعلى هذه السنّة درج الأدب العربي، وبها أخذ أغلب النقاد والمشتغلين بالأدب - وهناك مدرسة في النقد كان على رأسها أبو عمرو ابن العلاء لا تعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين - وسئل عن المولدين فقال: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه، وما كان من قبيح فهو من عندهم ، ومن انتصر من النقاد الى عصره أو أبناء عصره نظريا تنكر لهم عمليا . فهذا ابن قتيبة يقول في مقدمة كتابه الشعر والشعراء: « ...ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، ولا للمتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره» . ولكنّه حين يتكلم على عصره وأبناء عصره الذين منهم البحتري وابن الرّومي وابن المعتزّ والجاحظ يقول بكل تأكيد في مقدمة أدب

*) جريدة الزمان 1939.

الكاتب «... فأبعد غايات كاتبنـــا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتا في مدح قينة أو وصف كأس، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئا من تقويم الكواكب الخ...»

وابن رشيق يجاري ابن قتيبة في القول بعدم التعصب للقديم ولكنه يعود فيكتب ... «فاذا رأى المتأخر أنه ساقة الساقة تحفظ على نفسه وعلم من أين يؤتى، ولم تغرره حلاوة لفظه، ولا رشاقة معناه «ففي الجاهلية والاسلام من ذهب بكل حلاوة ورشاقة، وسبق الى كلِّ طلاوة ولباقة».

فهل نتناول عناوين مجدنا بالتقديس والاكبار ونمضي في التعصب لكل قديم وإلا فلنسكت.

ولكن السكوت علامة الموت.

وهل يضير العظيم أن يتناولَه الأصاغر بالنقد والمناقشة ؟

اللّهم لا . لأنه لا يضير الطود أن يحصبه حاصب بصغار الحصى، والمتنبي هو المتنبي رغم الصّاحب وابن جني والحاتمي وألوف من الناقدين .

وأي رجل خلد على الدهر أهو «هوميــر» أم «زويل» أحد نقاده الأشداء فلنترك التعصب لأصحاب الأنساب، ولنترك نظرية القومية لأصحاب السياسة، ولننقد الأدب القديم ورجاله بمقاييس رجل يعيش في القرن العشرين ويحكم على آثار القدماء والمحدثين بحرية لا تتقيد الا بقيد الحقيقة ولا ترضخ لأي اعتبار سوى ما تُوجبه قواعد الفن، وتؤيده مقاييس الجمال .

القضاء والقدر

قال تولستوي : إذا أنت وضعت في ساعتك سفاة دقيقة، فلا شك أن الساعة تتوقف حركتها، أو يختل نظامها. ولكنك متى رفعت هذه السفاة استمرت الحركة وتتابعت الدقات. فهذا الدليل على أن وجود تلك الذرة في الساعة كان مفسدا لها، معطلا لحركتها. وهذا ما يحدث في الحياة أيضا فأنت إذا اعتنقت مذهبا باطلا رديئا فسدت حياتك، وتعطلت حركاتك.

لا أعرف شيئا كان له أعظم الأَثر في ما حَلّ بالمسلمين من الفواجع والمصائب في حياتهم أفرادا وجماعات مثل سوء فهمهم لعقيدة القضاء والقـــدر.

هكـذا أراد الله!

هذه هي الكلمة التي تسمعها هي ومرادفاتها وما اشتق منها وما شابهها. تسمعها كل يوم من كل من يلقاك في كل مناسبة وبغير مناسبة. فتقال في الامر الصغير كما تقال في الامر الكبير، هي كلمة يرددونها لتبرير العجز والتواكل، والاعتذار عن الجمود والخمول، وإكساء الضعف وخَوَرِ العزيمة وضعف الحيلة، رداء من التقوى والتفلسف.

فالرجل لا يخيب إذا خاب في معترك الحياة لأَنه لم يستكمل عدة الكفاح أو لم يأخذ له أهبته، وهو لا يمرض إذا مرض لأَنه لم يتوّق أسباب العلة بالحيطة، ويحترز منها بالوقاية، ولا يسقط إذا سقط لأَنه لم يفكر في عاقبة عمله، ولم يتعظ بحالة من حوله من الضحايا، وإنما لأَن ذلك أمر قدره الله في الغيب، وكتبه عليه، وكل مكتوب على الجبين واقع لا محالــة.

حضرت ذات ليلة تمثيل رواية (1) بطلها شاب يتعاطى شمّ المخدرات. والشاب في هاته الرواية يرى في آخر الأمر ما تسبب فيه لأسرته من فواجع ونكبات وما جرّه لزوجته ولابنه الصغير من شقاء وتعاسة، ولوالديه من أحزان ومتاعب وماأوقع فيه نفسه من هلاك ومهانة، فلا يجد وجها للاعتذار عن كل هذا إلا قوله : على مراد الله! على مراد الله! ولاأدري هل قصد المؤلف أن يجعل بطله هذا من أولئك الذين يندفعون بمحض اختيارهم في الهوة، ويذهبون بأرجلهم إلى الهاوية حتى إذا رأوا ما هالهم نسبوا ذلك إلى القضاء والقدر، وحمّلوه وزره، أم هو لم يقصد شيئا من ذلك فجاء بطله نسخة طبق الاصل، لأنه نقله من هذه النماذج الكثيرة التي تكثر بيننا ونعايشها صباح مساء فلم يَعْدُ في تصويـره الحقيقة، ولم يخترع ويتخيل ولو لم يكن هذا النموذج هو الغالب والموجـود لأنكروا على المؤلف أن يأتيهم بشخص غريب عنهم لا يشاطرونه اعتقاده في الاعتذار عما اقترفت يداه بذلك العذر البارد.

تلك هي العقلية الشرقية في هذا الزمن، خضوع وخنوع واستسلام، وهروب من مسؤولية العمل بنسبته إلى قوة غيبية خارجة عن طوقها.

لماذا تنزل المصيبة بالشرقي، وتحل بالغربي فترى هذا يصلب لها عوده وتنبعث كبرياؤه، وتثور عزة نفسه فيطأطىء رأسه حتى تمر العاصفة ثم يرفعه أشد قوة مما كان، ويستأنف الجلاد والجهاد، ويقارع الخطوب حتى تلين قناتها، ويسلس له قيادها، بينما ترى ذلك الشرقي يتلقى ضربات الدهـر بنفس خانعة، وقلب ضارع ويسلم نفسه إلى التيار بدون مقاومة فيجرفه كما يجرف أوراق الخـريف.

---

1) هي رواية «اعرف اشكون تخالط» للمرحوم خليفة السطنبولي.

هذا رجل يفهم عقيدة القضاء والقدر فهما سيئا محصورا فيحرم كل سعي، ويشك في جدوى كل جهاد، ويرضى بعيش دون، فيقيم على الفقر والمسغبة، ويتقبل الألم والعذاب، ويؤمل الأمـل الحقير، فاذا حرضته على السعي، ولمته على القناعة، وأنكرت عليه الصبر على المذلة والمسكنة قال لك: هكذا أراد الله.

وهذا شعب يعامل كما تعامل العبيد، ويعيش كما تعيش الأنعام، ويغفل كما يغفل البله المآفيـن. فمتى سألته ما بالك في هذا الحضيض قال هكذا أراد الله. فإذا قلت ما معنى هذا الكلام، قال لك: اسكت يا أحمق، هل تنكر أن كل شيء بإرادة الله، وانه ليس للمرء مع الله إرادة ولا اختيار.

كلا ـ أيها الشعب ـ أنا لا أنكر ذلك ابدا ولكني لا أفهم هذا الكلام كما تفهمه، ولا أفسره كما تفسره أنـت.

كلا ـ أيها الشعب ـ أنا أقول لك كما قال جبران من قبل: لك تفكيرك وفهمك ولي فهمي وتفكيري.

الرّوحيات والعصر الحاضر

ترتفع في هذه السنوات الأَخيرة صيحات المفكرين، وحَمَلة الأَقلام ضاجّة من هاته الفوضى التي يعيش عليها الناس، حين زهدوا في كل معتقد، وسخروا من كل فضيلة، وأقبلوا على اللذائذ والمتع يأخذون منها أكبر حظ في أقل زمن، حتى ليظن الناظر في أحوال الأَجيال الحاضرة في الغرب أن سيل الماديات طغى، وغمر الناس، وأنساهم ان هناك شيئا آخر غير المادة يسمى الروح، ولحظات أخرى في الحياة هي أسمى من هاته الحياة الإباحية العارمة، والأَبيقورية الداعرة. وأقبح ما في الأَمر وأخطره هو ما أصبحنا نراه في الشرق من تقليد لتلك الحياة، وافتتان بها، وتهالك عليها، حتى صرنا نسمع في كل حين صيحات بعض الناعقين المفتونين تحث على الزهد في روحانيتنا الشرقية، والارتماء في أحضان الغرب، والجلوس منه مجلس التلميذ المقلد والعبد من السيّـــد.

وقد كان الرجاء في العلم عظيما حينما ظهرت آياته للعيان، وانتشرت معجزاته في هذا العصـــر ولكن العلم خيب تلك الآمال العريضة، وعلم الناس انه لا يقوم مقام الروحيات، ولا يستطيع وقايتها، ولا يمكن أن يطلب منه أكثر من تحسين حالة الانسان المادية بالتغلب على المسافات والأَبعاد، واستثمار ما في الطبيعة من القوى الكامنة، والطاقات الهائلة، بل العلم نفسه أصبح عنصرا من عناصر التدمير والهدم والاستعباد، ومحرضا على الجري وراء الماديات بما أتاح للناس من حياة الترف والرفاهية.

خطرت هاته الخواطر بفكري فأشرت إلى شيء منها في قصيدة طويلة (1).

1) نشرت هاته القصيدة قبيل الحرب العالمية الثانية في مجلة الرسالة المصرية بعنوان «خواطر في العلم» (السنة الثالثة: ماي 1935).

وقد اطلعت في جريدة أدبية تصدر باللسان الفرنسي على سلسلة مقالات هي استجوابات تحصلت عليها إحدى فضليات الأديبات من جماعة من الكتاب والفلاسفة في فرنسا . وقد استوقف نظري فيها تأييد الرأي الذي ذهبت إليه في تلك القصيدة، وكدت أميل عنه، وأضرب صفحا عن نشر تلك القصيدة . وهأنذا أنقل شيئا من تلك الاجوبة نظرا لما فيها من الفائدة والطـرافـــة .

قال جبرائيـــل مارسيل وهو مؤلف روائي وناقد مسرحي :

«لا شك ان الروح مهددة من كل الجهات ، ولكن يجب ان نعرف على التحقيق ما يراد بالمادية، وأحسب أن هاته الكلمة تحتوي على معان مختلفة جد الاختلاف، ولا يمكن ان تدخل تحت تعريف محدود. فهي أولا التكالب على اللذائذ المادية التي عمّت كل مكان. ثم هاته المذاهب الكثيرة التي بالرغم من اختلافها ترمي إلى فصل الانسان عن العالم... وأرى أنه لا وسيلة لتلافي هاته الحالة سوى إيجاد الوازعين:إما الوازع الديني وإما الوازع القومي. وكل ما يمكن ان يقال أن جماعات مضغوط عليها ولكنها مضطرة إلى الشغل في دائرة العمل الصالح خيــر من جماعات فوضــى يرخى لها العنان في تعاطي صنوف اللذائذ واتباع الاهــواء».

وقال جستون راجو أحد الكتاب والفلاسفة للاديبة السائلة :

«أنت تضعين على بساط المناقشة مسألة حيوية ، وانه لمن الواجب على كل مشتغل بالحياة الفكرية والأعمال الروحية أن يلتئموا وشيكا، ويعجلوا بتنظيم قواهم، ويبنوا معتقدا وحيدا يمكنهم من تسييــر الحياة القومية حيث لا يفصل بين الفكرة والعمل إلا الاضطراب والفوضى. ان الحزب الذى سيخلص الروح لمّا يوجد بعد،ويجب أن يوجد غدا . وإلا فإن فرنسا لا تبقى فرنسا، والانسانية لا تبقى إنسانية».

وقال هنري دو منتهرلن القصصي المعروف : «لا ينكر أحد أن الروح في خطر،

وقال أندري لوبي وهو شاعر وقصصي :

« إن العصر الحاضر يزيد كل يوم في تضخيم العناصر التي ستوبقه وتقوده إلى التهلكة . . . والحقيقة أننا لا نحيا ، إذ ليست لنا آفاق بل نحن مضطرون إلى العيش العادي الصغير . والانسانية لم تعد تعتقد شيئا مطلقا ، وهي المرة الأولى منذ القرن العاشر . وعوض أن نؤمل في المستقبل نراه يأتي ، والجزع يملأ أفئدتنا والشعور يخامرها بأنه سيكون أدهى وآلم من الحاضر الذي تعيش فيه . . . » .

ويقول دانيال روب وهو ناقد وقصصي :

« . . . كلا ليست الروح مهددة وحسب ، بل هي قد انعدمت ، واذا نظرنا إلى ما نسميه حضارتنا نرى انه ليست الروح فقط هي التي فقدت مكانتها بل كل تطلع روحي يخالف في سيره مصلحة ما يعد مضايقا ويعتبر مضرا . وقد تشكلت المادية المعاصرة بشكل جديد منذ خمسين سنة أعني الانتاج ووفرته في كل شيء . فالرأسمالية والشيوعية ـ وهما أخوان عدوان وتوأمان متناقضان ـ يعملان في الحقيقة لغاية واحدة فهما يقدمان غير الموجود على الموجود ، ويفضلان الكمية على الكيفية . . . إن العبقرية الانسانية أبدعت منذ نصف قرن كثيرا من المخترعات الصناعية . وكل اختراع يعد من الوجهة النظرية خطوة إلى الامام لتحرير الجنس البشري . وهذه جرائدنا تفتخر بهاته الاختراعات ، وتمجد الحضارة ، ولكن ما هو هذا التحرير في حضارتنا ؟ انه شكل آخر للعبودية » .

هل مات الشعر

هل مات الشعـر ؟

هذا سؤال خطير يلقى اليوم في الشرق والغرب على السواء.

وهو سؤال يلقيه رجال الأدب والنقد ليجيبوا عنه مؤكدين جازمين بأن الشعر قد مات، وان الشعراء قد كسدت بضاعتهم، فلم تعد نافقة في سوق الأدب ولا مطلوبة في ما يتطلبه الناس من الحاجيات.

وهذا حق – ولكن ما هي العلة في ذلك ؟

أما في الغرب فيعللون هاته الظاهرة بطغيان المادة على الروحيات وغلبة المحسوس على غير المحسوس وتفضيل العرض على الجوهر، وتقديم عـالم الشهادة على عالم الغيب، لأن شيوع الفلسفة المادية والوضعية « Positivisme » في السنوات الاخيرة زهّد الناس في كل ما قوامه العاطفة والخيال، وعلمهم ان يسخروا بكل ما ليس يعتمد على الواقع المجرد من كل اعتبار، والحادث الذي لا يقره العقل والمشاهدة ثم جاءت المخترعات الحديثة فيسرت للناس إشباع حاجتهم الفنية بوسائل سهلة لا تكلفهم إجهاد فكر، ولا إعمـال نظر، و لا تتقاضاهم مشقة في البحث أو عناء في الاختيار . ويذهب بعض الباحثين في تعليل موت الشعر أو ركوده إلى أن العصر الحاضر عصر نضج عقلي . والشعر كان يروقنا في القديم، وكنا نتطلّبه ونكثر من نظمه، لأننا كنا أطفالا في عصر همجيـة . وكان خوفنا من كل شيء وإعجابنا بكل شيء يجعلنا نتناول مظاهر الطبيعة بالتقديس، ونرتفع بها إلى مقام التأليه . لذلك فنحن كلما بعُدنا عن عصر الهمجية بعد الشعر عن الجمال والقوة اللتين يمتاز بهما في أوليته، ويقولون إنه من العبث ان نشتغل اليوم بهذا

العبث البرىء الصبياني، وهل يليق بالرجل الناضج العقل أن يعكف على لُعب صباه؟ فابن المدينة والعلم لا يليق بــه ان تستهويه شياطين الشعرّاء، أو يهتز لعرائس البحر، وجنّيات الغاب...

هذا ما يقوله بعضهم في تعليل موت الشعر في الغرب، ولكن المتأمل في أحوال البشر ـ سواء كانوا من الشرق أو من الغرب ـ لا يسعه إلا أن يرفض هاته الدعوى، لأَن الشعر لا يمكن أن يموت. فالقول بفناء الشعر معناه فناء بواعثه في الانسان. كيف! والشعر في فؤاد الانسان منجمه ومنبعه، ومسرحه ومرتعه، والشعر من روح الانسان مصدره وإليها مآبه ومن أعماقها مبعثه وإليها مهواه وانصبابه. فليست المسألة مسألة همجية ومدنية، ولا مسألة طفولة وكهــولة، وإنما مسألـــة عاطفة وشعــور وخوالج وأحاسيس، وحاجة نفسية إلى الفن، وتعبير عن كل ذلك. فما دامت الشمس تطلع وتغيب، ومــا دام القمــر يضيء ويحتجــب، والــربيــع يضحــك والصبــح يتنفس، والورد يأرج، والبلبل يغرد، والفراش يطير في المروج الخضر والنحلة تهزج حول منابت الزهر، فلن يموت الشعر. وما دام الإنسان يسّر ويستاء، ويفرح ويحزن ويلذ ويألم، ويدرك معاني الجمال والجلال، ويفهم رموز العظمــة والقــوة، ويروقه في الأَشياء والأَشكال ما تنطوي عليه من الائتلاف والتنــاسب، والانسجام والتوازن فلن ينقرض الشعر أبدا.

والحقيقة أن الذين حكموا على الشعر بالموت، وبشروا بزوال دولته لم ينظروا إلا إلى كمية الدواوين وعدد الشعــراء. أما لو أنهم نظروا نظرة تأمل وتدقيق، لرأوا أن الشعر في الغرب أعم انتشارا، وأكثر ذيوعا منه في كل مكان، وأن الناس أعظم تطلبا له، وحرصا عليه منهم في كل زمان مضى من أزمنتــــه. بل أزعم أن الشعر قد أصبح في العصر الحاضر ضرورة من ضرورات الناس وانه يسيطر على حياتهم اليوم أكثر من كل شيء عداه.

الشعر في الغرب هو ما عند العامل الصغير في داره من ضروب التأنق في العيش والتنوع في التأثيث، والترفه في المأكل والمشرب، والتجمل في الملبس والمسكن. فقد أتاحت له المدنية من أسباب النعيم ما لم يكن يحلم به لويس الرابع عشر، ومكنته من امتلاك أشياء، وتسخير أدوات في منزله، لم توجد في قصر أكبر الملوك في الزمن الغابر. الشعر هو قريب من عين الصانع البعيد إذا أحب أن يَرى، قريب من أذنه إذا أراد أن يسمع، هو في هاته الاعاجيب التي يراها في البحر أساطيل تبعث الرعب والهول، أو تشعر بالعزة والكبرياء، ويراها في الجو أسرابا ترهب وترعب، أو تدمّر وتعمر. الشعر هو هاته البطولات الرياضية، والملاعب الرياضية تضم عشرات الآلاف من المتفرجين. هو هاته الاشعة التي تخترق الأجسام، والأمواج الضوئية التي تخترق السحب لتريك ما يُقال وما يفعل في البلد النائي. هو هاته الحسناء الباريسية التي صفّ شعر رأسها أنطوان، وفصّل ثوبها الموشّى كريستيان ديور، ودخلت إلى معهد التجميل فخرجت كما تخرج فينيس مولودة من الموج. الشعر في الغرب هو أنوار باريس، وحِسان هوليود، ومعارض نيويورك، وملاعب برلين، وبنوك لندن، ومغاني رومة. كل هاته الأشياء قصائد بليغة من الشعر الحي، تراها العيون في كل وقت، فتتملى منها، وتترك في النفس من الخواطر والمشاعر ما لا يقل روعة وتأثيرا عما يتركه شعر هومير وفرجيل وشكسبير.

كل هاته الحياة الصاخبة المضطربة القوية هي التي أشبعت النهم الشعرى للناس، وكونت عقليتهم من جديد، وعوض ان يطلبوا الشعر تعبيرا أصبحوا يطلبونه تجسيما وتصويرا. وعوض أن يتمثلوه بالخيال صاروا يجدونه بالمثال – وانهم لفي غنية عن شعر الدواوين ما دام الشعر عندهم يلتمس في يسر وسهولة في كل ما جعل هاته الحياة العصرية – رغم ماديتها – أشبه ما يكون بالقصائد المحسوسة والأعاجيب الملموسة.

شذرات مختلفة

أشواق إلى أرض الحجاز

(كتبت في يوم عرفـات)

في هذا اليوم يقف الحجيج بعرفات، ويقضون الليل في المزدلفة .وغدا ينحرون هديهم في منــــى، ويرمون جمراتهم في محصّب العقبة، ثم يفيضون بالبيت العتيق الذي شهد قبلهم مواكب الأجيال والأمم منذ آلاف السنيــــن .

عرفات! منى! المزدلفة! يالها كلماتٌ سحريَّة يسمعها المؤمن فيقشعرّ قلبه من الجلال، وتطير إليها نفسه من الشوق، ويسمعها الأديب فتبعث في نفسه ذكريات، وتتجاوب في قلبه أصداء ونغمات، وتتردد على لسانه من الشعــــر أبيــــات :

ولما قضينـــا من منى كـــل حاجـــة ومسّح بالأركان من هــــو ماســـح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننـــــا وسالت بأعناق المطي الأباطـــح

يا لها أمكنة تهوي إليها الافئدة، وتنجذب إليها الارواح، وتتجه نحوها لأشواق، وتحج اليها إلبشرية رجالا، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميـــق .

ليت شعري هل يتاح لي أن أذهب إلى الحجـــاز؟

ليت شعري هل يأذن الله أن أذهب إلى تلك الأرض التي تتلقى فيها الملائكة وفد الله وزواره فتسلم على ركبان الابل، وتصافح ركبان الحمر، وتعتنق المشاة اعتنـــاقـــا (1).

---

1) من حديث لمجاهـــد .

تلك الأرض التي تُسكب فيها العبرات، وتُستجاب الدّعـوات.

هناك نور الرسالة يشع ويضيء، ونفحات الوحي تمضي وتجيء.

هنالك انبثق الضياء أول ما انبثق، ثم عمّ الارض كلّها، ونزل الوحي أول ما نزل. ثم نشرت منه على الدنيا نفحات عبقة، كل من استروح ريحها ارتفع في سلم الكمالات، وبلغت إنسيانيته أعلى الدرجات، وأمن على نفسه في حياته من الممـــات.

ليت شعـري هل يأذن الله بالذهاب إلى الحجاز؟

أذهب إلى هناك لأشهد الارض التي شهدت محمدا. صلى الله عليه وسلم فأتظلّل بالسّماء التى أظلته، وأسلك الطرق التي أسلكته، وآوي الى الكهوف التي آوته.

هل يتاح لي – يارب – أن أصلّي في المسجد الذي بناه، وألمس المنبر الذي اعتلاه، وأفضي إلى كل ذرة من ذرات قبره بأشواق قلبي، وإجلال نفسي، ومحبة روحي، وخشوع كياني إلى العظمة التي عنا لها كل عظيم، والجلال الذي طأطأ له كل جليل، والرفعة التي تقاصر لها كل رفيع، والسّموّ الذى انخفض له كل سام؛ إلى البلاغة التي استقى منها البلغاء، والبيان الذي أعيا الفصحـــاء، والخُلق الذي شهد الله أنه عظيم.

الحجـاز! يا لها كلمة تبعث في القلوب الشوق، وتفجّر في النفوس ينابيع الحنين. كل لبنة في أرض الحجاز تذكر بقصّة، وكل شبر يروي عن حدث جليل، وكل معلم ينطق بتاريخ، وكل سَمُرة تحدث عن موقف.

أرض العبقرية والبطولة والفحـولة:

عبقرية الصديق والفاروق، وبطولة خالد وأبي عبيدة، وفحولة ابني الزبير بن العوام: عبد الله ومصعب.

أرض الفصاحة والرجاحة والسماحة، فصاحة علي بن أبي طالب، ورجاحة العباس، وسماحة عبد الله بن جعفــر.

أرض العلم والورع، والزهد والنسك، والعبادة والإيمـان.

علم عبد الله بن العباس، وورع عبد الله بن عمر، وزهد أبي ذر، ونسك الحسن البصري، وإيمان خبيب شهيد يوم الرجيع القائل وقد قربوه للقتل:

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الاله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو مُمزَّع

سياسة معاوية، ودهاء المغيرة وعمرو، وجود الحسن والحسين، ونجدة أبي محجن وعُرابة:

اذا ما راية رُفعت لمجد تلقّاها عرابةُ باليمين

سلام على أرض الحجاز، أرض الشيح والقيصوم، والضال والسلم، والمندل والعرار:

فما روضة بالحَزْن طيِّبة الثرى يمجّ الندى جثجاثها وعَرارُها
بأطيب من فيها إذا جئت موهنا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

سلام على مسارح الحسان الفاتنات، وملاعب الظباء الساحرات، ومجالي الملاحة والصبا، ومراتع الجمال والشباب.

هنالك خطرت هوادج عائشة بنت طلحة، وفاطمة بنت عبد الملك، ومرت مواكب زينب بنت يوسف والثريا بنت علي صاحبة عمر.

هنالك شب الغناء العربي والظرف الحجازي، وهنالك نشأ ابن سريج وابن مسجح، ومعبد، والغريض، وابن محرز، وابن عائشة، وطويس، ومالك ابن أبي السمح.

هنالك ترعرعت سلاّمة وحبّابة، و درجت جميلة وخليدة والعزتان: الميلاء والزرقاء. سلام على أرض الشعر والحب العذري.

شعر عمر بن أبي ربيعة، والحارث بن خالد، والعرجيّ والنّميري وذي الرمّة، وحبّ جميل بن معمر وكثير، وقيس بن الملوّح وعروة بن حزام، ومجنون بني عامر.

فإلى الثريا يقول عمر:

من رسولي إلى الثّريـا فإنّـي   ضقت ذرعـا بهجرها ، والكتـاب

وفي بثينة يقول جميل :

وإني لراض من بثينة بـالـذي   لو أبصره الواشـي لقرّت بلابله

وفي عنتـرة يقول كثيـر :

قضى كل ذي ديـن فوفّـي غريمه   وعـزة ممطـول مُعَـنىًّ غريمها

وفي زينب بنت يوسف يقول النميري :

تضوّع طيبا بطن نعمـان إذ مشت   بـه زينب في نسـوة عطـرات

ويقول عروة بن حزام في عفـرائه :

كأن قطـاة عُلقت بجنـاحهـا   على كبـدي من شدة الخفقـان

ويقول قيس بن الملوح في لبنـاه :

ومن يتعلق حب لبنـى فـؤاده   يمت أو يعش ما عاش وهو كليم

ومن لا يذكر ذا الرّمة ، وهو واقف على أطلال دار الحبيبـة :

ألا فا سلمى يا دارميّ على البلـى   و لا زال مُنْهلاًّ بجرعائك القطرُ

أما هذا القلب المتوحد المشتاق إلى أرض الحجاز فإنه لايزال ينشد :

ألا ليت شعـري هل أبيتـنّ ليلـة   بوادي القِـرى إني إذن لسعيـد

في الكتب

(من مذكرات قديمة)

لاأدري كيف نشأ حبي للكتب، فقد ولدت في أسرة لا تملك كتبا ولا تقتنيها وإن لم يكن أفرادها من الأميين . ثم إني نشأت في بيئة يخفي أهلها الكتب تحت برانيسهم ويودعونها خزائن المساجد تحت الاقفال والمفاتيح بعد أن يكتبوا عليها تعويذة تقيها من السوس، ويوكلوا حراستها إلى الملك كيكتج . وفكرة إخفاء الكتب، والضنّ بها على الشعب، فكرة اقتبسها أصحاب الكتب من أبناء زمني من قساوسة القرون الوسطى. . . .

وقد نسيت أكثر ذكريات صباي ولكنني لم أنس الذكريات التي تمتُّ إلى الكتب بصلة . فاني لم أنس خزانة الكتب التي كنت أراها في مقصورة بدارعمي، وما زلت أتحسر إلى اليوم كلما ذكرت أنني لم أتمكن من معرفة ما فيها. وأنّى لي ذلك وقد كانت مقفلة بقفل متين، كثيرا ما تسللت إليه خفية وحاولت فتحه فلم أفلح. وربما رأيتني مرارا في المنام و أنا أفتحه وأقلب ما في الخزانة من كتب بلذة عجيبة. وقد أعثر في حانوت أبي على رزمة أوراق أو رسائل فأجد متعة في نشرها وقراءتها . وقد أمرّ على بائع المصاحف وكتب الخرافات - وليس لنا غيره في بلدنا - فأقف ساعات طويلة أترقب من يأتي ويتصفح تلك الكتب لأقف خلفه وأنظر ما فيها. وأول كتاب أمكنني شراؤه هو كتاب «رأس الغول» فكنت أقرأه في خلواتي، ثم أخبئه بكل دهاء في صندوق قديم لجدتي.

وأمر بطور الصبى فما أذكر منه إلا لهفتي على الورق المكتوب كيفما كان نزعه، وأنتقل إلى طور طالب العلم بتونس.

تونس – كما لا أحتاج ان أقول – هي في نظري مدينة الكتب، وباعة الكتب. وأول ما بهرني في تونس وملك علي مشاعري هو واجهات المكتبات ، وما زلت إلى اليوم أقف أمامها حالِمًا،وقد استحال جسمي إلى عيون تقرأ العناوين وتتعرف أسماء المؤلفين . وقد كنت أتلقى من والدي في كل شهر قدرا زهيدا من المال فأذهب إلى «سوق النحاس» وأنفق معظمه في شراء كتب قديمة قذرة . وثبت عندي بعد ذلك أن الطالب الذي لا يمر في حياته الدراسية «بسوق النحاس» لا يكون يوما ما شيئا يذكر في عالم النبوغ والمعرفة. إن التلميذ الذي يتخطى جميع أسواق تونس بما فيها من المتاع و الآكال والأشربات،ثم يأتي إلى سوق النحاس ليصرف دريهماته القليلة في أوراق بالية وكتب قذرة ممزقة،لهو الرجل الذي سيكون حبيب الكتب، وصاحب المكتبة الضخمة.

وقد كانت عندنا في المدرسة مكتبة يتولى أمرها التلامذة أنفسهم. وكان أسفي شديدا إذ لم ينتخبني رفاقي – ولو مرة – حافظ كتب . ولعل قصري هو الذي حرمني وجنى علي في جملة ما جنى . فقد لاحظت أن الذي ينتخب كل عام لا يُراعى فيه إلا طول قامته ولو كان كمثل الحمار، على أني ثأرت لنفسي من هذا الاقصاء . فقد كنت أطوف على جميع مناضد الطلبة، وأستخرج ما فيها من كتب المكتبة وأطالعها حين يكون أصحابها خارج القسم، فقد كنت أتمارض وأبقى في المدرسة. وبذلك أمكنني معرفة ما في المكتبة من صنوف المؤلفات.

وقد بليت في عهد الدراسة برفيق يتعقبني ويخصص جزءًا من وقته الغالي ليخاصمني. فقد نسيت أن أذكر أني كنت لا أصبر على قراءة كتاب دون أن أملأ حواشيه بالتعاليق أو الشروح ، فكان صاحبي يعنفني على ذلك أشد التعنيف ، كأن تلك المكتبة ملك أبيه،أو كأنه اشتراها بماله .

الكتب ! يا لها كلمة سحرية تطرب لها نفسي، ويهتز لها قلبي فإذا

أردت أن لا أتثاءب فحدثني عن الكتب، وإذا أردت أن تفاخرني وتبهرني فلا تفاخرني بمالك ورياشك، فإني لاأهتز لذلك ولو كنت «قارون» أو «نيرون». أنا ما غبطت أحدا إلا على الكتب، وما تمنيت أن أكون عاملا لأحد إلا لصاحب مكتبة، ولا أضعت قياد نفسي إلا في مكان فيه كتب.

أزور الصديق فلا أطلب منه إلا أن يريني خزانته، ولا يقر لي قرار في داره إلا إذا أحطت علما بما عنده من الكتب. وقد ألتقي بالصديق فلا أسأله عن حاله أوحال عياله وإنما أسأله عما يطالع من الكتب وعما اشترى منها. وقد احتقر الشخص يعظم في عيني لأول مرة اذا تبين لي أنه لا يعرف الكتب ولا يقتنيها. وكم كنت أود أن أكون حاكما مطلق السلطان لأفرض حب الكتب على طلاب الخبز وطلاب الذهب. وإني لأشك في صدق المازني في قوله إنه باع كتبه حين احتاج للمال. فهل يبيع الرجل عضوا من أعضائه أو قطعة من حياته؟ وأعترف أني رجل أقدر قيمة الدرهم في اليوم الأسود وأستكثر ثمن كل سلعة، ولكني ما وجدت في يوم من الايام كتابا يساوي ثمنه من الدراهم بالغة ما بلغت هاته الدراهم. وقد أجود في بعض الأحيان بأشياء، ولكني ما جدت في حياتي بكتاب أحبه.

الكتب! هي لذتي في الحياة. حبب الي من دنياكم الكتب. فهي فوق سريري، وعلى المنضدة وفوق الرفوف، وعلى الأرض، وعن اليمين والشمال. هنا وهناك وفي كل مكان... وهي في يدي في غدواتي وروحاتي. وقد أحمل الكتاب معي وأنا ذاهب إلى مكان لا تمكن القراءة فيه ولا تتيسر، ولكني مع ذلك أحمله كما حمل الموسوس تميمته الواقية.

وقد أرى الكتاب في يد رجل غريب فلا أزال أداوره حتى أعرف عنوانه ويسوءني أن تفوتني معرفته. وقد أكون منهوك الأعصاب متعبا، ولكني مع ذلك لا أنام بدون كتاب. وربما نعست وهو على صدري حتى أقوم في الصباح، فيكون هو أول نجيي كما كان آخر سمير.

وكم كان بودي أن يكون كل من بالمنزل يحب الكتب، ولكن كيف يمكن ذلك، وزوجتي - سامحها الله - تأبى أن تراها إلا ضرة تنافسها،ولا ترضى إلا أن تعاملها معاملة الضرائر . فقد آلت على نفسها أن تأخذها أينما وجدتها وتبعدها من طريقي، وتفتكها من يدي قسرا إذا وجب وقت الأكل أو الرقاد. وإني لأخاف أن تحرقها يوما أو ترميها في بركة ماء كما فعلت زوجة الامير ابن فاتك بعد موته (1). وانها لتنغص عيشي كلما خرجت وجئت منها برزمة جديدة. ويظهر لها أني ضعيف العقل لأني أصرف دراهمي لأملأ جيوب جماعة من المجانين لا صناعة لهم إلا بيع الهذر والهراء للسذج أمثالي. والويل لي إذا لم أف بكل طلب. فهناك التعريض بي وبفهمي للأمور ومعرفتي لقيمة الأشياء، وانه من العار علي أن أشتري الكتب وأتركها عاطلة حتى أنه لم يبق لها من الأمر إلا أن تتخذ ثيابها من الورق ما دام البيت لا يحوي شيئا غيره.

ففي سبيل الكتب ما ألاقي من أهلي، وفي ذمة الأدب ما أتحمل من الخصام.

وكثيرا ما أقف أمام مكتبتي وأقول: لو قام كلّ هؤلاء الموتى! لو أطلوا علي من وراء الرّفوف! أيّة مجموعة من الدّمامة والقبح لو خرج الفرزدق بوجه كالعجين، وبشار بحدقتين حمراوين ناتئتين، وابن الرّومي بصلعة كالقرعة.

وماذا يقع لو بُعث هؤلاء صائحين صاخبين والتقى الصاحب بن عباد بأبي حيّان، والمتنبّي بالحاتمي، وابن رشيق بابن شرف، وبديع الزمان بأبي بكر الخوارزمي.

ولكن الله أرحم من أن يشغلني بهموم هؤلاء الموتى في الكتب ويملأ فكري

1) ذكر محمد إسعاف النشاشيبي في نقل الاديب رقم 118 ان زوجة الامير ابن فاتك نهضت هي وجواريها إلى خزائن كتبه وجعلت ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار وهي تندبه — وفي قلبها من الكتب وانه كان يشتغل بها عنها — (الرسالة س 5 — العدد 209).

بخصوماتهم، ثم يبعثهم أمامي بين عُرْج ومفاليج وعُور وعُمْي، فتقذى عيناي بدمامة وجوههم، كما قذي فكري بهرائهم وهذرهم، ولكني رغم كل ذلك:

ما تطعمت لـذة العيـش حـتّى صرت للبيـت والكتاب جليسـا

* * *

وبعد فماذا أفدت من الكتب؟

أقول في الجواب ما أفدت غير الضّنى، وما خرجت بغير الحسرة. لقد بنيت لنفسي أبنية من الورق فحبست فيها أحلامي وطموحي، وجعلت منها عالمي الذي أعيش فيه، ودنياي التي أهـواهـا.

لقد سهرت حين كـان النـاس سادرين في الكرى، وقطعت الليالي في طلب سر الحياة من الأوراق حين كان طلاّب الحياة يشربونـها في دنان بنت الحان، وينهلونـها من رحيق الكواعب الحسان:

في أمـور وفـي خمور وسـمّـو ر وفـي قاقم وفي سنجـاب (1)
فـي حبير منـمنم وعبــير وصحـان فسيحـة ورحـاب (2)
في ميادين يختـرقن بساتيـ ـن تمـسّ الرؤوس بالأهـداب
فـي ظلال من الحـور وأكنـا ن مـن القُرّجَمّـة الحجّـاب
عنـدهم كل ما اشتهـوه من الآ كال والأشربـات والأشـواب
والطـروقات والمـراكب والولـ ـدان مثـل الشوادن الاسـراب (3)
واليلنجـوج في المجامـر والنـ ـد ترى نشره كمثل الضبـاب (4)
والغوالـي وعنبر الهنـد والمسـ ـك على الهام واللحى كالخضاب(5)

---

1) السمور والقاقم والسنجاب حيوانات برية يتخذ من جلودها فراء ثمينة.
2) الحبير المنمنم: الثوب المرقوم الموشى.
3) الطروقات: النياق في شبيبتها. والاسراب: قطعان الظباء، يريد بها وبالولدان المماليك والجواري الحسـان.
4) اليلنجوج: عود يتبخر به.
5) الغوالي: الاخلاط من الطيب.

ولديهم وذائل الفضض البيض تباهي سبائك الأذهاب (1)
وفرق بين من يعبّ الحياة عبّا :
من جوار كأنهن جوار يتسلسلن من مياه عذاب
لابسات من الشفوف لبوسا كالهواء الرقيق أو كالسّراب
وبين من يناجي المفلوكين، ويُسامر الفاشلين، ويتعلل مع ابن الرُّومي بقوله :
لم أكن دون مالكي هذه الامـلاك لو أنصف الزمان المُحابي

نعم! لقد أغلقت باب مكتبتي حتى لا تدخل إليّ ضجة العالم، ولكنني بإغلاقه انعزلت عن العالم، وأصبحت لا أعرف من الحياة إلا ما عرفتنيه الكتب.

والكتب هاته تفسر الحياة ألف تفسير، وتذهب فيها ألف مذهب، ولا تفيد إلا الحيرة، واضطراب الفكرة.

فهل الحياة هي ما لفقته من الكتب، وخرجت به من بحثي الطويل فيها. اللهم لا. فالحياة هي هي واحدة لا تتجزأ، وجوهرها لا يتبدل ولا يتغير. ولكنني وياللجهالة! أغمضت عيني عنها ورحت ألتمسها على الرفوف المغبرة في بيت مظلم الأركان، وبين طيات ورقات بالية كالحة. ثم إنني ما جنيت من كل تعبي تحت الشمس إلا أقضية تتناقض، ونظريات تتضارب، وهراء في هراء. لقد نخر سوس الكتب عظمي، وتمشت السآمة في مفاصلي، وضعف بصري واحدودب ظهري، ولم أعثر إلا على هاته الحقيقة الكبرى التي عثر عليها النبيء سليمان في آخر حياته :

باطل ـ الكل باطل وقبض الريح.

ياللهفة العمر! لقد أضعت إذن أوقاتي بين عرصاتي، فلم أخرج إلى الدنيا ولم أعائش الناس، ولم أفتح عيني على جمال هذا الوجود.

---

1) الوذائل ج وذيلة: وهي المرآة أو قطعة الفضة المجلوة كالمرآة.

يا لهفة النفس! لم أحوّل نظري إلى القمر المتلالىء في السماء، ولم أصعد إليه بالخيال على قمم الجبـال، وأمتزج بنوره البهي مع الأرواح السابحة في الضياء، الحائمة في أجواز الفضاء، ولم أرقص على ضوئه الفضي الشاحب في المروج، حرا طليقا من قيود المعرفة، بل حولته إلى النظر في دقة تشابيه ابن المعتز صاحب الزورق الفضي، وحمولة العنبر...

ولكم أقبل الربيع، وصدحت طيوره ورقصت فراشاته على نور الشمس، وتزيّنت أرضه، وتبرجت في حياء وخفر، وبقيت أنا في زاوية من زوايا بيتي أنقب عن بيت عتيق لصعلوك من صعاليك العرب، أو نظرية لفيلسوف مجنون يدّعي أنه عرف الحقيقة وامتلك ناصيتها.

والعجيب من أمري أني ألفت صحبة الجماجم المتكلمة، فأصبحت آنس بها وأنفر من أبناء جيلي. فكم ضمّتني مغانٍ ومجـالس ينطلق فيها الضحك انطلاقا، وترسل بين أهلهـا النكتة إرسالاً فما أحمد مقامي فيها. وإني - إن أقمت - لضيّق الصدر، موحش القلب، وما تزال تلك حالي حتى أخرج وأرجع إلى كتبي.

كتبي! لقد أحببتها كثيرا وعرفت منها أن من أحبّها كثيرا جنى منها الخيبة والحرمان. ولا شك عندي أن ضحايا الأدب هم من ضحايا الكتب، وإلا قل لي بربك بأي شيء تفسر هاته الظاهرة الغريبة حقـا، المحيرة حقا. هاته الظاهرة قلما تتخلف وتشذ، ظاهرة بؤس الأديب وتخلّف حظه.

بأي شيء تفسر فقر ابن الرومي وتعاسة ابن زريق.

لماذا ترى الجلف ينعم ويترف، وإلى جانبه العبقري الملهم يعوزه القوت وينتظـره الموت.

يقول ابن الرومي عن نفسـه:

ثـوبيَ الـرثّ، والثيـاب طـراء وطـعامي برغمـيَ المجشوب (1)

1) ثياب طراء: قشيبة جديدة. طعام مجشوب: غليظ خشن بلا أدم.

وخـوانـي ملكّـك وقصـاعـي ... وبرامي فكلّهـا مشعـوب (1)
وحبابي مصدوعة وجـراري ... وقلالي فكلهـا مثقـوب (2)
من رأى منزلي رأى خـير علـق ... فيه أن ليس فيه لي منهوب (3)
ومحلّي عـارية وجـدارا ... ت بيـوتي فكلها منقـوب (4)
ومقيلـي في الصيف سخن بلاخيـ ... ش فعظمي يكاد منه يـذوب (5)
ومبيتي بلا ضجيـع لـدى القَـ ... رِّ وللوغـد شادن مخضـوب (6)
وَلِيَ الخف ذو الـرقاع أو النّعـ ... ل وللعبـد سابح يعبـوب (7)

كل هذا من الكتب. فالرجل الذي تخلق بكتب الأخلاق، وعلم بكتب العلم، وتأدب بكتب الأدب، وعرف الحق والصدق، وأدرك أين يبتدىء الواجب وأين ينتهي، هو الذي اضطرته الحياة لأن يعايش الناس فينزل إلى معتركهم ويُنازلهم لا بنوع سلاحهم بل بما عرف وتعلم وتأدب. فهو إذا تحدث لم يكذب وإذا وعد لم يخلف، وإذا أؤتمن لم يخن. ويخيل إليه أن الذي عند الناس مثل الذي عنده. فيعطي ماله، ولا يستوثق له، ويستخدم فلا يغمط حقا، ولا يبخس الناس أشياءهم، وبمثل هاته الأمور

---

1) ملكك : صلب مكتنز لقلة ما يوضع عليه — برامي مشعوبة أي مشققة.
2) الحباب ج حب وهو الجرة الضخمة.
3) خير علق : أنفس شيء — ومنهوب : مسلوب.
4) محلّي عارية اي منزلي مستعار.
5) المقيل : مكان الاستراحة في القيلولة — بلا خيش : يعني بلا ستار يمنعه من الحرارة.
6) بلا ضجيع : اي بلا مضاجع. والوغد الرذل الدنيء. والشادن الظبي اذااشتد يعني الفتاة الحسناء، والمخضوب اي الفتاة المخضوبة الكفين بالحناء.
7) الخف: نوع من الأحذية الرخيصة — والسابح اليعبوب : أحد السوابح وهي الخيل لأنها تسبح بيديها ورجليها كأنها تعوم وتبعد في مدى الشوط بالجري.
راجع هاته القصيدة الطويلة بديوان ابن الرومي ص 516 وطالعها :
سيدي أنت شاخص مصحوب ... وضياعي إليكم منسوب
والقصيدة البائية الأخرى في ديوانه ص 434 وطالعها :
طار قوم بخفة الوزن حـتى ... لحقوا خفة بقاب السّحـاب

يفشل الرجل المستقيم في كل ما يأتيه من عمل، وينجح النكس واللئيم والخب الذي لم تفسده الكتب ولم تحمله مثلا أعلى بين جوانحه يقيس به أشياءه وأشياء الناس.

يقول الجاحظ في الكتاب - (والجاحظ هو ذلك المجنون الذي كان يستأجر دكاكين الوراقين ويثبت هناك لقراءة ما فيها من الكتب):

«من لك بواعظ مله، وبزاجر مغر، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، وببارد حار، وبقديم مولد، وبميت ممتع، ومن لك بشيء يجمع لك الاول والآخر، والناقص والوافر، والخفي والظاهر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه والجنس وضده). اه

أقول: أفضل من هذا الذي جمع المتناقضات، عينان تتأملان، وقلب يعي، وفكر حي يختزن ويتدبر. ثم ها هو ذا كتاب الطبيعة الأكبر، فليقرأه كل قارىء، وليتأمل فيه كل متأمل، ففيه كل الأضداد والمفارقات، وعنه صدرت كل الكتب والرسالات.

وبعد فقد عرفت أن كتبي هي سبب بلائي وشقائي، فهل تراني مغرقها أو ملقيها إلى النار؟ معاذ الله فإن المدمن يعرف ما وراء خمره من البلايا والرزايا ولكنه رغم ذلك يشربها:

تداويت من ليلى بليلى من الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

حوار بين صديقين

حدثني صديقي – وكنا نتناجى في سمر من أسمار الشتاء – قال : كنت أقرأ في عهد شبابي قول لبيد : ألا كل شيء – ما خلا الله – باطل، وأقول عجبا ! كيف يكون كل شيء باطلا، وفي الدنيا الحب والجمال، والحكمة والعلم، والشهرة، والمجد، والمال واللذة، وهي كلها أشياء سامية رفيعة، ومطالب يتم بها العمــران، وتنسق الحياة، ويتقدم المجتمع البشري، ويكون للحيــاة قيمة وللعيش معنى.

وكنت ظننت أن معنى الحياة في الحبّ، فوكلت بالجمــال أتبعه، ورحت أجتلي الوجوه كما يجتلي القارىء صحف الطروس «علّني أجد شقيقة نفسي» كما يقول يوسف غصوب . وكان ان أحببت، وفديت حبي ما فديت، وأقسم لي وأقسمت له أننا سنظل حبيبيــن إلى الأبد، وإلى ما بعد الموت. وطالما أنشدته مــع ابن أبــي ربيعـــة :

يفــرح القلب إن رآك وتستعـــ ـبر عيني إذا أردت ارتحـــالا
أنت عيشي – حِبّي – ورؤيتك الخلـ ـد وكنت الحـديث والأشغـــالا

ولكم بكيت من البعد، وسهــرت من الأسى، وشكوت من الصدود، ولكم كابدت حرّ الشوق، واكتويت بنار الهجر، وإلى آخر ما في لغة المحبين من كلمات ما برحوا يستعملونها في مناجاتهم وأشعارهم من عهد حواء وآدم إلى اليـــوم.

ولكن هذا الحب لم ينبق إلى آخر الدهر وإلى ما بعد الموت . فقد

(*) مجلة «الثريــاء» مارس 1945 .

أتى عليه الدهر كما يأتي على كل شيء وكان أن مات الحبّ من شدة الحبّ، ولم يبق معي من كل ذلك العناء والبلاء إلا ذكريات مؤلمة يحاول الدهر ان يعفي عليها في القلب، وإلا طرف مهداة تحاول الأيام أن تبليها في جملة ما تبلي.

ولو اغتفر لي المحبون هذا التجديف لقلت إن الحبّ غواية وعماية وأنانية فظيعة، ورغبة امتلاك واستحواذ، وهو لذلك باطل.

ورأيت الناس يتهالكون على اللذات، ويجرون وراء المسرات فطلبتها مثلهم في مغنيّة محسنة، ومجلس طرب حافل بالإخوان، وكؤوس تدار على السمّار، وضحك ولعب، وصخب ولجب، وقد كنت علمت أن العقل عبء ثقيل، وأن اطّراح الوقار مما يُريح الجسم المهدود، والخاطر المكدود:

لابد من هزل النفوس فجدّها تعب . وبعض مزاحها استجمام

إلا أنني رأيت أن ساعات المرح تعقبها من الغد ساعات سآمة، وان الفرح بقدر ما يستولي على النفس تخلفه في اللحظة الموالية أوقات ضجر وكآبة لا تعرف النفس مصدرهما ولا الباعث لهما:

كم يعقب الرقص الخليع من الكآبة في الغد

« ده موسيه »

ورأيت أن الذي تهمّه أيام عمره، وشؤون فكره، قلّما يجد لذته في هاته المجالس، فهو مع القوم وليس معهم، وكأن صوتا في داخل نفسه يقول له ألهذا خلقت؟ وهل هذه الأحاديث الفارغة، والضحكات الداوية والنكات الفجة، والصخب المعربد هو الغاية من الحياة، والسبيل إلى السعادة. وقلت يا فلان لو صرفت أيام عمرك كما يصرفها هؤلاء فماذا عساك أن تبلغ، وماذا عسى الأيام أن تبلغ بك؟ ولو بلغت مكانة الحسن بن هانئ لما كنت أكثر من نديم . ألم يقل النواسي عن نفسه:

فلو رُدّ في كسرى بن ساسان روحه إذن لاصطفاني بين كل نديم

وعلمت أن هذا أيضا باطل في الأباطيــــل .

•قلت لعل معنى الحياة في المال ، والمال قوة ، والقوة من أسباب السعادة ، ونظرت إلى من يملكون المال ، فإذا هم يملكون معبودا له طقوسه ونواميسه ، معبودا يسير أتباعه على شرعته ، ويأخذهم بسنته،وله جنّته الصناعية فيها اللذائذ ميســورة ، والرغبات موفورة ، وله ناره الصّناعية تحرق وتعذب وتهول من زبانيتها الفقر والحرمان وتقلبات الزمان، فهم من خوف هاته النار في عذاب ، ومن رؤية زبانيتها في اضطراب ، يقولون إنهم أحرار أقوياء ، وهم عبيد أرقاء ، عبيد معبودهم الأعظم ، إليه تنتهي صلواتهم ، وعلى مذبحه تراق دماء أعراضهم،وفي هيكله تتلى مدائحهم ، وفي سبيله تكون مصادقتهم وعداوتهم وبميزانه توزن فضائلهم ورذائلهم .

وعلمت أن هذا أيضا ضلال في الأضاليل ، وباطل في الأباطيل . فلما علمت كل ذلك قلت لأطلب المجد من طريق العلم، فسهرت في طلبه الليالي ، وطمعت أن أحصل منه على الكثير ، وأبلغ فيه مبلغ المشاهير ، ولم أبخل عليه بنور بصري ، ورونق شبابي وسلامة صحتي . ورأيتني بعد السنين الطــوال ، ورغم ما بذلت من راحة وصحة ، لم أزل واقفــا على الشاطيء ونظرت أمامي فهالتني أغواره وأعماقه، وما خطوت خطوة الا اتسعت آفاقه ، وامتد رواقه ، وقلت ماذا عساني ان أبلغ منه ، وهذا الشهرستاني الذي جاس أقطاره ، وخاض بحــاره يقول :

لعمــري لقد طفت المعالــم كلّــها   وسيّرت طرفي بين تلك المعالــم
فلم أر إلا واضعا كفّ حــائــــر   على ذقن ، أو قارعا سنّ نــادم

بل وماذا عساني أن أجني من ثماره ، وأحطب لناره ، وهذا الفخر الرازي يعترف بانه لم يظفر من كل تعبه بطائل . أليس هو القائـــل :

ولم نستفـــد من بحثنا طول عمرنــا   سوى أن جمعنا فيه قيــل وقالوا

وسكت صديقي يتأمل في ضوء الصباح ثم قال :

لقد قضيت ما مضى من عمري في التجارب... والتأملات وأخيرا عرفت أن كلّ ما نشغل به أيام أعمــارنا إن هو إلا خدع وأباطيــل، وأمور أوجدها الانسان ليتلهى بها حتى لا يدرك مقدار شقائه وتعاسته في هذا السجن الضخم الهائل الذي يسمونه الدنيــــا.

فقلت له على رسلك يا صاح، مهما أطلت الشكوى وتفننت في الحديث ووصفت خدع الحياة فأنت لا تستطيع أن تعبر عن كل ذلك بأبلغ ولا أصدق من قول الجامعة ابن داوود: «رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح» (جامعة 14)

أما قول لبيد: ألا كل شيء ـ ما خلا الله ـ باطل. فقد قال النبيء الأكرم إنه أصدق بيت قالــه شاعــر. ثم قام وقمت وقد مضت من الليل قطعــة كبيــــرة.

وحدثني صديقي قال: أنت تعلم مقدار اعتزازي بالمعلّمين، وتقديري لرسالتهم، والأمل الذي أعلقه عليهم في النّهوض بالمجتمع التونسي، ولكن لديّ مآخذ عليهم، أحدثك اليوم عن واحد منها يحز في نفسي منه الشيء الكثير، وكلّما فكّرت فيه خرج بي التفكير عن حدّ الاعتدال والتسامح.

قلت: هات ـ يا صديقي! ـ مأخذك هذا، واترك بقيّة المآخذ إلى لقاء آخـــر.

فقال: أريد ـ يا صديقي! ـ أن أقول لك حقيقة خطيرة هي: أن المعلمين قوم لا يقرؤون ولا يطالعون، وهذه عقيدة ثبتت عندي منذ أزمان وكادت تبلغ اليقين. وأهون بهذا الأمر لو لم يكن المعلّمون هم المؤتمنين على أرواح وعقول أجيال من أبناء الوطن. إنّ المعلّمين ـ يا صديقي ـ يشترون كل شيء إلا الكتب، وينفقون بسخاء على سائر حاجيتهم وشهواتهم ولكنهم يضنون بثمن الكتاب والمجلّة وحتى الجريدة. إنهم يرضون

رغباتهم المادية إرضاء تاما، ويزهدون في إرضاء رغباتهم الرّوحيّة. إن الفكر لا يعيش بدون غذاء، وإنه ليأخذ في الانكماش والنقصان إذا لم تتعهده في كل يوم بل في كل ساعة، بالجديد من المعارف والآراء.

نعم إن جوع الفكر لا يلح على الانسان بإلحاح جوع البطن. لذلك نرى الكثيرين يشبعون بطونهم، وينسون أو يتجاهلون حاجة أفكارهم إلى الغذاء.

فقلت: إن ما تصفه من حال ليس خاصا بالمعلمين، بل هو قدر مشترك بين معظم أفراد من نسميهم بالطبقة المثقفة. فلو كانت هذه الطبقة تقرأ وتشتري كتبا لما كان عندنا أزمة تأليف، وأزمة نشر، ولما شكا الكتاب والأدباء من ركود الأدب بتونس.

لو كانت الطبقة المثقفة عندنا تقرأ وتقتني الكتب لكنا أمة تصدر الكتب للخارج كما تفعل لبنان اليوم، وهي أمة لا تتفوق عددا و لا ثقافة على الأمة التونسية. إن المشروعات الأدبية لا تكاد تظهر في تونس حتى تموت بين شحّ البعض وعدم اكتراث الاخرين، وإن المجلات الأدبية لا تعيش في أرضنا أكثر من أشهر معدودة، وهي في كل لحظة مهددة بالإفلاس أو الموت، وإذا كانت هذه هي حال الطبقة المثقفة كلها فلِمَ نؤاخذ المعلمين وحدهم؟

قال: أنا لا أؤاخذ المعلمين وحدهم ولا أؤاخذهم كلهم. ولكني أحب أن يكون المعلمون عنوان الحيوية الفكرية، واليقظة الواعية. أحب أن يكونوا الطليعة في عالم المعارف والأفكار الجديدة، والاتصال بتطور العالم. إن عدد المعلمين الوافر وانتشارهم في كل مكان، كان يجب أن يكون الكفيل لكل مشروع ثقافي بالنجاح ولكل حياة فكرية بالازدهار. وكان يجب أن يكون المعلمون هم نواة القراء الذين تعتمد عليهم كل حركة وتنشر بفضلهم كل ثقافة. ثم إن المطالعة - بالنسبة للمعلمين - شيء أكيد حيوي. لأن المعلم الذي لا يقرأ،ولا يطلع على سير الأفكار في العالم خطر على الناشئة. إنه رجل يحسب أن كلَّ العلم، وكل المعرفة

في «الشهادة» التي تحصل عليها. انه رجل يحسب أنَّ الذى ظفر بالترسيم في سجل المعلمين آن له أن يستريح من عناء الدرس والتحصيل بعد أن قضى زهرة شبابه في حلقات الجامع أو على مقاعد المدرسة، وآن له أن يطوي الدفاتر، ويترك المحابر، و يذهب للمجالس ليخائل ويفاخر، ويدعي علم الأول والآخر، كما يقول شوقي في إحدى مقاماته . إنه يملك «ماعون الصناعة»، وهل تريد شيئا آخر زيادة على ماعون الصناعة؟ ثم ماذا يجد في الكتب؟ وما يهمك من مشاكلها وموضوعاتها؟ إنها مشاكل لا ناقة له فيها ولا جمل.

تلك هي العقلية التي تسيطر على جانب عظيم من المشتغلين بالتعليم. فهل أخطر من هذه العقلية على الناشئة؟ رجل يتطور العالم من حوله، وتستجدّ معارف، وتتصارع مبادىء وآراء، وتتقدم علوم وفنون، وتستبدل طرق بالية عقيمة بطرق جديدة، ومناهج فاشلة بأخرى ناجحة وتبحث مشاكل يتوقف على حلها مستقبل أجيال، وهو لا يشعر بالحاجة إلى مجاراة التيار، ومحاذاة الركب السائر. رجل يوكل إليه أمر أجيال من شباب الوطن ليفتح فكره للمعرفة وبصره للنور، وليس له من المعرفة والنور الا النزر اليسير المتناقص على كرّ الليالي والايام. رجل تتجه إليه أنظار مئات ومئات من الشبان، وفي روحهم عطش للعلم والفهم، وفي قلوبهم لهفة للبحث والنظر، ولكنه لا يستطيع أن ينقع غلة لهم، ولا يبل لهم صدى. وهل يروي المكان الضحل عطاشا، وهل تنبت الأرض القاحلة روحا وريحانا؟

فقلت: مهلا - يا صديقي! - لقد قادك الغضب إلى الظلم، وأخرجك الحماس عن القصد والاعتدال وإني أسجل قولك أنك لا تؤاخذ المعلمين كلهم بهذا الذي تؤاخذهم به، وإني لأعرف أقواما منهم يشرفون أسرة التعليم حيوية أفكار، وإقبالاً على تثقيف أنفسهم وإكمال نقصهم. ولكن هل أنت متأكد من أن الآخرين الذين يعنيهم المتنبي بقوله:

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التّمام

هل أنت متأكد من أن مجانبتهم للكتب،وعزوفهم عن شرائها ومطالعتها ليسوا هم المسؤولين عنه؟ فلعل سبب هذا الذي تأخذه على المعلمين راجع إلى ظروف عيشهم، إن أغلبهم يقيم في بقاع نائية لا يصل إليهم فيها صدى من أصداء العالم، ولعل حياتهم في القرى والمداشر ذات أثر فعال في نفوسهم. فالمجتمع الجاهل الذي يعيشون فيه لا يشعرهم بالحاجة إلى المزيد من الثقافة، لأنهم – على كل حال – متفوقون في ناحية المعرفة على من يجالسونهم ويختلطون بهم صباح مساء. ولعل ذلك راجع إلى ظروف تلقيهم للعلم، وأن أساتذتهم الذين لم يحببوا إليهم البحث والتنقيب، ولم يعودوهم مخالطة الكتاب والصحيفة، هم المسؤولون الحقيقيون عن هذه الحالة. فنشأوا والكتاب عندهم شيء غريب، فهو مثل الشخص المجهول يعترضك في طريقك، أو يصادفك في الأماكن العامة تكون أول خواطرك نحوه التجهم والنفور، وأول اهتمامك اتقاء ما يأتيك من فضول وهذر. فإذا أردت أن تلوم وتؤاخذ، فما عليك – يا صديقي! – إلا أن تلوم من أشرفوا على تخريج المعلمين خاصة، والمثقفين عامة. لأنهم لم يعلموهم أهم شيء، وهو مصادقة الكتاب، واحترام الكتاب، بل وتقديس الكتاب. لقد علموهم بعض العلوم ولكنهم لم يعلموهم كيف ينمون تلك العلوم، وأوحوا إليهم في سلوكهم بأن الشهادة هي القصد الأسمى، وهي النهاية التي يقف عندها التثقيف. فآمنوا بذلك كله وصدقوه، وعملوا به. وهذه هي المأساة.

وإذا كان لا بد من مؤاخذة الحكومة في كل شيء – كما هو الشائع عند الناس – فلنؤاخذها في هاته الناحية. فالحكومة تبذل أموالا لترضي رغبات الكثيرين في كثير من نواحي النشاط الرياضي والفني، ولكنها تغفل جانب المكتبات فلا تكثر من إنشائها،وتعمم الانتفاع بها، ولاتسهّل اقتناءها ولا تشجع القائمين على المشروعات الثقافية والفكرية. فإذا كان المعلمون لا

يستطيعون الذهاب للبحث عن الكتب أو لاقتنائها فالواجب أن تأتي الكتب إليهم محمولة في مكتبات متنقلة. وإذا كان بعض الناس يضنّون بالمال في سبيل شراء الكتب، فلْتُعْطَ بالمجان على سبيل الإعارة، فأنت ترى - يا صديقي - أن وسائل نشر الثقافة في بلدنا غير ميسورة كما تظن، وأن المسؤولية في هذا المجال موزعة على السواء، وليست خاصة بالمعلمين وحدهم.

فقال: اسمح لي - يا صديقي! - أن أعارضك في كل ما ذهبت إليه. فالأمر أخطر مما ذكرت وأكثر تعقيدا، إن الطبقة المثقفة كانت تقرأ وتطالع وتماشي الحركة الفكرية يوم كانت في دور طلب العلم. إن الشباب المتعلم يقرأ كل شيء، يقرأ التافة والثمين، ويحيط علما بما يقال و يكتب. لا يفوتهم شيء من الحركات والأفكار، بل هم الذين يكونون طبقة القراء وهم الذين يكونون جمهور المستمعين في المحاضرات. إنهم دعامة كل حركة فكرية عندنا. يدفعون الأساتذة إلى الكتابة والمحاضرة، ويقومون بالحفلات والمهرجانات الأدبية. ولكن - يا للعجب! - إذا حصلوا على الشهادة، وخرجوا إلى ميدان العمل الاجتماعي، وأصبحوا من أرباب «الوظائف» تبخر ذلك النشاط وذلك الحماس، وأصبحوا من أبعد الناس عن الحركات الفكرية، ومن أشح الناس بالمال في سبيل نشرها؛ بل وأزهد الناس في تثقيف أنفسهم باقتناء وسائل الثقافة ومنها الكتب. إن أولئك الشبان المتحمسين في شبابهم للثقافة، المشاركين في كل حركة يصبحون، إذا فارقوا العاصمة، من أشد خلق الله تنكرا للثقافة والفكر. حدثهم - إن شئت - عن الدور والعقارات، والزياتين والبساتين، والزيارات والسيارات. وحدثهم عما قال فلان، وعما قيل عنه، وعن النزهات والسهرات، وعن كل شيء قيّم أو سخيف، وعن كل قضية بعيدة أو قريبة، فإنهم يستمعون إليك، ويزيدون على خبرك، ولكنك إذا حدثتهم على الكتب و الكتاب، والشعر والشعراء،

أو على الأفكار والآراء تثاءبوا وتضجروا، وتململوا وتسللوا... أما قولك إن الحكومة لم تقم بواجبها في نشر الثقافة فهو غير صحيح نسبيًا. إن المكتبة العمومية بتونس ترسل الكتب إلى كل من يطلب منها ذلك ولا يكلفه هذا الإرســال شيئا من النفقات، لكن سل عن الذين استعملوا هذا الحق وانتفعوا بهذا التيســير.

وإن مركز التفقد العربي بكل مدينة قد أنشأ مكتبة للمعلمين تعيرهم الكتب مقابل اشتراك سنوي زهيد، ولكن سل عن الذين سارعوا بتسديد اشتراكهم والانتفاع بالمكتبة دون أن يكون هناك نوع من الضغط الأدبي من جانب المتفقد.

ولديّ أمثلة كثيرة وشواهد على هذا الزهد في شؤون الفكر، ولو يُسّرت أسبابه، وذُلّلت صعابه. فليست المسألة – يا صديقي – مسألة ظروف عيش أو تعلّم، إنها عيب متأصل لدى إطاراتنا الثقافية. إنها مصيبة قومية، ولست أبالغ في لفظ أو أتجنى على أحد. إنها مصيبة خذلان الثقافة بوطننا. خذلانها من طرف من خُلقوا ليؤيّدوها وينشروها ويغرسوها في النفوس. ولئن أمكن التغافل عن ذلك في الماضي، فإنه لا يجوز السكوت عنه في الحاضر، ونحن مقبلون على عهد جديد، وثقافة جديدة، ومطالبون بتعريب التعليم في كافة مراحله. إن تونس الغد لا تحتمل أن يكون معلموها ذوي تفكير محدود، ونظرة مادية للأشياء، ولا تريد أن تضع مستقبل أولادها في يد قوم لا يهتمون بشؤون الفكر، ولا يتحمسون للمبادىء والقيم الروحية...

ثم سكت قليلا وكأنه يحاول أن يهدىء أعصابه الثائرة، ثم استأنف قائلا: هل تريد أن أقيم لك دليلا آخر على زهد معلمينا في شؤون الفكر. قارن منهم بمن تعرفه من المعلمين الأجانب، وقل لي في صراحة وصدق من هو الذي يحرص على تغذية عقله كحرصه على تغذية بدنه؟ أيّ الفريقين تجده مطلعا كامل الاطلاع على حركة الأفكار في عصره، مجددا

لطرقه وأساليبه؟ أي الفريقين يقتني الكتب ذات الطباعات الفاخرة الثمينة، ويعتبرها من أنفس الذخائر وأثمن الأعلاق؟ هل ترى منهم أحدا لايكون مشتركا ـ على الأقل-في مجلة مهنية... هل آن لنا أن نبدل عاداتنا ونعيد النظر في كل ما درجنا عليه من تواكل وإهمال حتى نقطع ألسنة المنتقدين والمتنقصيـــــن.

فقلت: أجل يجب أن نعيد النظر في كل عاداتنا، وأن نبحث عن أماكن النقص فينا ونعالجها بصراحة.

في نادي المعلمين بالقيروان

«بعد إعلان الاستقلال»

أيها الزملاء الكـرام!

كلُّكم يعلم الكلمة التي تُؤْثر عن «بيسمارك» الوزير الالماني الشهير، وقد سئل بأي شيء انتصـرتم على عدوكم في الحرب فقال: بالمعلّم.

ونحن نقول اليوم وقد كلّلت جهودنا بالنجاح، واعترف لوطننا العزيز بحقّه في السيادة والاستقلال إنما يرجع الفضل في ذلك ـ أو بعضه على الاقل ـ للمعلّـــم.

أيها الزملاء. إن الجيل الذي نمثله أي الجيل الذي عاش النصف الأول من القرن العشرين، قد وجد نفسه حين بلغ مبلغ الرجال، وحين واجه المسؤوليات، أمـام حالة لايغبط عليها: حربـان عالميتـان بما أعقبهما من حرمان وقحط، ومشاكل من كل نوع، ثم استعمار جشع، قد تجاوز سنيه الأولى سني التجربة والتودد، فاستفحل، وتمكن، واستكلب، وكشف القناع عن وجهه الفظيع البشع، وزاد أمره استفحالا بعد ابتلاع الجزائر وتونس ومصر في أواخر القرن الماضي فاستصفى طرابلس سنة 1911 والمغرب 1912 وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق 1920. وهكذا سقطت الامبراطورية العربية العتيدة في قبضة الاستعمار الغربي الواحدة بعد الأخرى في مدة خمسين عاما. وكان جيلنا مرجوا لأن يكافح ويقاوم ويسترجع الاستقلال الذي أضاعه آباؤنا، ويفك القيود والأغلال التي أخذ الغرب يكبل بها الأقطار العربية.

وبدأ الصراع والكفاح في الشرق العربي لاسترداد العز المسلوب والحق المغصوب، وبدأ الصراع والكفاح في تونس هينا لينا على يد آبائنا الذين

أضاعوا استقلالنا، وعرفنا من هؤلاء الآباء أسمـــاء خير الدين، وبوشوشة والبشير صفر وغيرهم. ثم خلف هاته الجماعة جماعة أخرى جسمت تلك الحركة الاحتجاجية، و صاغت لها مبادىء،وحددت لها رسوما وسمتها «الدّستور».

وكان الدستور في أول الأمر لا يهدف إلا للتحصيل على بعض الإصلاحات والاعتراف ببعض الحقوق، وانتقل المشعل من يد عبد العزيز الثعالبي ورفاقه إلى يد «الحبيب بورقيبة» ورفاقه، فأخرج الدستور من ميدان النظريات إلى ميدان العمل، ومن حركة نخبة مثقفة إلى حركة شعبية تنتظم كافة الطبقات.

وجاء وقت كنا مهددين فيه بالانقراض، وطموس معالم الجنسية التونسية، وجاء وقت كانت فيه كلمة «تونسي» لا ينطق بها في بعض الإدارات وينكــر مدلولهــا على صفحات الصحف. وجاء وقت كان الوزراء يسمون فيه وزراء سمو الباي. والحكومة تحجر نعتها بالتونسية في الحفلات والمهرجانات،والعلم التونسي في الحفلات والمهرجانات أندر من الياقوت وأعزّ من بيض الأنوق. وانتقل الدستور من طور إلى طور، ومن مرحلة إلى مرحلة، وكان كل من يوسم بهذا الاسم، أو ينتسب إلى تلك الفئة، مهددا في حياته، أو في حريته أو في رزقــه.

وظل الدستور يتكيّف ويتطوّرحسب الظروف، وحسب تقلبات الحوادث وحسب سير الأفكار التحريــرية في العالم، ولكنه لم يبلغ ما بلغه من القوة والعزيمة والاستماتة إلا حينما انتشر الوعي الوطني في جميع طبقات الأمة، وحينما اقتنع كل النــاس بل آمنوا إيمانا عاصفا بأن استرجاع السيادة المسلوبة هي قضيّة حيـــاة أو مـــوت.

فما هو دور المعلم في كل هذا؟ وما هو عمله في نشر الوعي القومي في جميع الطبقـــات؟

أظنّ أنه لا يوجد من ينكر على المعلمين دورهم الحاسم في الحقل الوطني وفي تطور الفكرة الوطنيــة.

من ينكر أن المعلم هو أقرب الناس لكافة الطبقات الشعبية وأكثرهم اتصالا بها ؟ من ينكر أنه هو الذي ألف الجمعيات من كل نوع، وأشرف على توجيهها وإدارتها، وكرّس أوقات راحته لتسييرها، وإيصال النفع بها. جمعيات الشبان المسلمين، جمعيات الكشافة، جمعيات التمثيل، جمعيات القدماء، جمعيات الموسيقى، الجمعيات الرياضية، جمعيات الشبيبة المدرسية، كلّها تدين في الغالب بتكوينها وحياتها للمعلمين. وما منكم أيها االزملاء إلا وله مشاركة بخير ما عنده في هاته المؤسسات. لا يكابر في هاته الحقيقة إلا مكابر عنيد، أو جاحد حسود.

ثم من ينكر أن المعلم هو الذي نفخ روح الوطنية في الأجيال الصاعدة، وعلمها معنى الكرامة والعزة، وغرس في النفوس الناشئة الاعتزاز بماضيها والإيمان بمستقبلها في حين كان إلى جانبه – وفي نفس المدرسة – من كان يهمه أن يحقّر هذا الماضي، ومن كان يبعث الشك في نفوسها بتنقصه والتزهيد فيه. وكلكم يعلم ويذكر كيف كان تلاميذكم يسألونكم – والحيرة تتملكهم – هل حقا ما قيل لهم من كلام يتعلق بدينهم، ومدنيّتهم، فكنتم تُرجعون الحقائق إلى نصابها، وتحاربون في هاته الواجهة أيضا كما تحاربون في الواجهات الأخرى.

ومن ينكر أن المعلم التونسي كان محل ريبة من الإدارة الفرنسية. فبدأت بإنقاصه حقوقا مادية وأدبية حتى يظل محقّرا في نظر تلاميذه، وحتى لا يكون له نفوذ أدبي عليهم. وكلنا يذكر هذا العهد البغيض الذي لا يسمح فيه للمعلم التونسي بأن يساوي زميله الفرنسي في الأجر والمسؤولية.

وكم نصبت على المعلم التونسي من رقابة حتى يكون التعليم الذي يعطيه خاليا من كل روح، ومن كل عنصر قومي، فكان يحجر عليه أن يتحدث على التاريخ الإسلامي والتاريخ التونسي، وعلى أبطال الإسلام وعلمائه ومفكريه حتى ينشأ الطفل وهو لا يعرف إلا أبطال مستعمريه ومفكريهم. ولكننا

أعرضنا عن تحجيرهم واغتنمنا كل فرصة وكل مناسبة لنركز في عقول أطفالنا الاعتزاز بقوميتهم وتاريخهم وأمجادهم متعرضين في ذلك إلى غضب مضطهدينا وعقابهم، وكم مُنعنا من تلقين تلاميذنا الأناشيد الوطنية، وكم طُلب منّا أن نكتب كل نشيد ونعرضه على الرقابة ونعلق قائمة الأناشيد في الأقسام حتى لا تتسرب إلى عقول أطفالنا كلمات العـــــزة والحرية، وحتى تكـــون الأناشيد خـالية من كل روح. ولكنـــا ضربنا برقابتهم عرض الحائط. وكل من لم يستطع أن يلقن تلاميذه الأناشيد الوطنية فى القسم لقنها لهم في جمعيات الكشافة وجمعيات الشبيبة المدرسية.

.ففرحة الأمة التونسية بالاستقلال هي فرحتنا لأننا شاركنا في بناء صرحه طـول حياتنا وفي كل يـوم، ولأننا كافحنا نحن أيضا من أجله، وتألمنا في حياتنا التعليمية كثيرا. فقد كنا نواجه الاستعمار البغيض وممثليه كل يوم، وجها لوجه، نواجهه في شخص بعض المديرين المتعجرفين، وفي بعض المعلمين المتعصبين لمدنيتهـم ولغتهم، و نواجهه في معاملة الإدارة الفرنسية وتفننها في إقصائنا عن كل مسؤولية وكل تقدير، ونواجهه في برامجه التي لم يقصد بها وجـه العلم والتثقيف الحقيقي، وإنما قُصد بها الفرنسة فى كل مظهـــر.

واليوم وقد تحصلنا ـــ والحمد لله ـ على جلّ ما كنا نصبو إليه، ونعمل لأجله ونكافح في سبيله فإنَّ مسؤولياتنا ستزداد، ورسالتنا ستكمل. اليوم يجب علينا أن نكوّن أجيالا تتسم بسمة حب الانشاء والخلق، وتؤمن بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وتثور على كل ظلم وضيم، أجيالا تقدم مبادئ الحرية والعزة والكرامة على كل مبدإ، وتقدر القيم الروحية والفكرية كل التقدير، وتقدس الواجب، وتخلص في أدائه أيّما إخلاص، أجيالا تتمّ الاستقلال، وتدعمه، وتحوطه بالرعاية، وتحافظ عليه، وتفديه بالمهج والأرواح، حتى إذا حان الوقت سلّمنا لها المشعل لتحمله عاليا وهاجا في هاته الديار،

وحتى تسير على ضوئه أجيال وأجيال آخـــرون.
فالأشخاص تزول، والوطن خالـــد بــــــاق.

البناء والتشييد

قصيدة من الشعر «العملي»

الشعر الذي لا يكتب على الطروس، ولا يوزن بميزان الخليل.
هو شعر يقرأ في الشوارع والميادين والساحات.
لا في الكتب والدواوين والمجلات.
إنه شعر من أروع الشعر.
ها هنا... وهناك... وهنالك.
رجال يمشون ويجيئون ويعرقون.
ها هنا يرفعون الأنقاض، ويحطمون الجدران الخربة.
وهناك يحملون الركام والحطام والتراب.
وهناك يزيلون المزابل المتراكمة والقمامات.
كما فعل عمر بن الخطاب من قبل بقمامة بيت المقدس.
ثم يبنون مكانها الحدائق البهيجة، والساحات الفسيحة
والأشجار المظللة، والملاعب المريحة.
والمعاهد والملاجىء، والنوادي والمصحات.
عجبا أين كان هؤلاء الرجال؟ ومن أين جاؤوا؟
إني لم أكن أراهم من قبل، وإن كانوا من أهل بلدي.
إني لم أكن أعرف أنهم بهذه الكثرة الكثيرة.
من أين خرجوا؟ هؤلاء الرجال وهؤلاء الشبان؟
وكيف أصبح كلهم يبني ويشيد ويغرس.

* * *

وأقول لنفسي، وأنا أشاهدهم يكدحـــــون
يكدحون في الشارع والساحة، وحول سور المدينة وعلى حافتي الطريق:
لماذا لم نفكر من قبل في بناء مدينتنا، ورفع أنقاضها المتراكمة؟
وكيف ساغ لنا أن نتغنى بالمجد الماضي والتاريخ الحـافل.
ونحن نرى معالمه تهوي حجرا حجرا؟
وكيف كنّا نقنع بالعيش في إطار القرون الوسطى؟
ونحن نحسب مع أحياء القرن العشرين،
وكيف كنا نرى القذارة والجيف ملقاة على أبواب المدينة؟
ولا نشعر بوجوب تغييـر تلك الحال.

* * *

كنا نرى الزائرين والسائحين يأتون مدينتنا من أطراف العالم.
كنا نراهم يطوفون في الأحياء ويتجولون في الأسواق.
وكانوا يحملون مصوراتهم، وآلاتهم السنمائية.
ويصورون... ويصورون... فماذا كانوا - بربّك؟ - يصوّرون.
لقد كانوايتسلّون بقذارة أحيائنا، ويهدون منظرها للعالم.
ولم نكن نستطيـع منع ذلـك،
ولم يكن يصغى لنا حين نطالب بتغيير ذلك.
«العامل» مشغول بملء جيبه من البيضاء والصفراء.
لا همّ له إلا حبك الشباك الفاضحة وعقد الصفقات الرابحة.
والمستشار البلدي بورجوازي متجاهـل.
صنيعة للدخيل، ومعيـن للغاصب.
لا هم له إلا جلب النفع لنفسه وذويه.
والمستعمر هو كلّ شيء في بلادي:

سيطر على كل شيء ، واحتكر كل شيء
إن شيد فإنما يشيّد قصره، وإن جمّل فإنما يجمّل بستانــه .
وان نظف فإنما ينظف حيّه الذي يسكنه مع أبناء جنسه .
لأنه سيطر على كل شيء واحتكر كل شــيء .
حقا لقد كان ذلك عصــرا مظلما قاتمــــا .
وكنّا به جدّ أشقياء، وجدّ مبتئسيــن .

* * *

أما اليوم ـ فقد عزمنا على البناء والتشييّــد .
تغنينا بذلك طويلا في الخطب والقصــائـــد .
ولكنّنا اليوم نريد أن نعمل . . . بل بدأنا نعمل . . . بل سرنا في العمل شوطا .
نريد أن نبني «إطارا» يليق بكرامتنا .
إطارا صالحا لأن تعيش فيه أمة حرة مستقلة .
أمة تحكم نفسها بنفسها .
أمة يحكمها أبناؤها لا الأغــــراب .
وماذا يهمّ الأغراب من أمر بلادي، وهم يمرّون بها مرورا .
أما نحن فإنّ أمرها يهمّنا جــدّا .
اننا ولدنا فيها، وفيها ترعرعنا وشببنا،
وسوف نشيخ فيها، وندفن تحت ترابها،
كما دفن فيها من قبل آباؤنا وأجدادنا .
نعم نريد أن نبنيها من جديد، لنضمّ الطارف إلى التّليد .
نريد أن يراها الزائرون والسائحون نظيفة نقيّة، بيضاء غراء .
نريد ان نعيــش فيها سعـــداء .
نريد أن نرجع لها جمالها ورواءها وبهاءها .

لترجع في نفوسنا العزة والكرامة والكبرياء.
نريد ان ننقلها من القرن العاشر إلى القرن العشرين.
ها هي ذي الأيدي العاملة، والسواعد الفتية.
ها هم أولاء الرجال، وها هم أولاء الشبّـــان.
لقد رأيتهم يعملون، ويكدون، ويجهدون جهدهم.
هنا ... وهناك... وهنالك... وفي كلّ مكـــان.
لقد غادروا العرصات، ونوادي البطالة.
تركوها واجتمعوا ليبنوا من جديد مدينتهم الخالدة.
ألا فليبارك الله هاته الأمة الجديدة،
وليبارك الله قائدها وباعثها إلى الحياة.

في جامع عقبة

(ليلة 17 رمضان)

أيها الشباب المسلم!

إن هاته الليلة - ليلة السابع عشر من رمضان - هي من غُرر ليالي الاسلام الخالدة التي لايجود الزمان بنظيرتها في تاريخ البشرية إلا في النّدرة، وفي أجلّ ساعة من ساعات الدهر.

لقد كانت هاته الليلة - بنزول القرآن إلى الأرض - الحد الفاصل بين عصرين متباينين: أحدهما ابتدأ والآخر انتهى . عصران يختلفان كل الاختلاف، ولا يلتقيان لحظة إلا لينفصلا إلى الأبد، ويبتعدا كل الابتعاد، عصران يفرّق بينهماما يفرق بين النور والظلمة، والحياة والموت، والهمجية والمدنية.

أما العصر الذي انتهى فهو عصر الظلمات والهمجية.

وأما العصر الذي ابتدأ فهو عصر النور والحياة والمدنيّة.

ولقد كانت ليلة الانتصار في بدر هي الحد الفاصل بين عهدين متباينين: عهد المادية في أبشع صورها، وأشنع حالاتها، وعهد الرّوحيات المنتصرة على تلك المادية أعظم وأروع انتصار. فلقد اندحر في مثل هذه الليلة طغاة جاءوا إلى بدر يدافعون عن امتيازات انتزعوها من الضعفاء، وعن أصنام اتخذها كبراؤهم ليستعبدوا باسمها الشعب المسكين، ويستغلّوا نشاطه لفائدتهم ويوجهوه حسب أميالهم وشهواتهم. ولكن إرادة الله كانت غير إرادتهم، ويد الله فوق أيديهم، فقد انتصرت المثل الروحية على الوثنية المادية، وظفرت الديمقراطية الشعبية على نظام الأسر السخيف، وتحررت الروح من كبول المادة.

ليلة السابع عشر من رمضان هي ليلة نزول القرآن. وماذا عسى العرب أن يكونوا لولا القرآن.

لقد كان نزول القرآن بالنسبة للأمة العربية حادثا من أعظم وأجل ما سجله التاريخ في سبيل سير البشرية إلى الرقي والحضارة، وبنزوله تمت للأمة العربية معجزة من أكبر معجزات الدهر.

ناهيك برعاة الإبل والشاء، وقد أصبحوا على عرش الأكاسرة والقياصرة. وحسبك بالضاربين في الفيافي والقفار وقد أصبحوا سادة المدن والحواضر وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس.

وليلة السابع عشر من رمضان هي ليلة بدر الكبرى، وماذا عسى الاسلام أن يبلـغ من الشأن لو لم ينتصر انتصاره الحاسم في وقعة بدر؟ إن بدرا في الغـزوات التي غزا بهـا الحق الباطـل كالغرة في صحيفـة جهـاد البشرية في سبيـل الحق والعدل والحرية، وفي سبيل الروح، ضد المادية الطاغية تلك المادية، التي تكبل البشرية بالأغـلال وتعوقها عن السير إلى الأمـام.

لقد كانت بدر انقلابا اجتماعيا خطيرا حطمت فيه الارستقراطية المغرورة تحطيما، وانتصر الشعب المدافع عن حقه في الحياة، وفي حرية المعتقد انتصارا كان له ما بعده.

لقد انتصر الشعب الضعيف الأعزل على تحكم طبقات الأشراف التي كانت تحتقره فتنعته بالمستضعف وتستغل جهوده، وتستثمر ضعفه. وما هي إلا أن أنكر المصلح الأعظم - صلى الله عليه وسلّم - هذا الاستعباد حتى تجمع حوله الشعب المستضعف فصار قوة حطمت جميع قوى الظلم والإرهـاق والاضطهاد، وحطمت الامتيازات والفروق، وأصبح الناس سواسية كأسنان المشط.

وإذا المساواة حقيقة واقعة بعد أن كانت حلما من أحلام الضعفاء

المضطهدين وكان أن انتصرت الديمقراطية في جزيرة العرب في عالم مليء بالطغاة والمستبدين. وكان من آثار هذه الديمقراطية أن بعثت الأمة العربية بعثا أدهش العقول وحير الألباب، وأصبح أولئك المستضعفون - كما يدعوهم جبابرة قريش - هم سادة العالم في كل ميادين النشاط البشري، وبفضلهم تنسم العالم الذي يحيط بهم نسيم الديمقراطية الحقة ونعم بنعيم الحرية، وبعد أن أنزلوا طغاة العالم القديم من صياصيهم، وشردوا جيش الأرستقراطيين الماديين.

ولم تمض مدة طويلة حتى امتزجت شعوب الأمم الأخرى بالشعب العربي الديمقراطي، لأنه جاء بمبادىء الأخوة البشرية والمساواة في الحقوق والواجبات والعدل الذي لاتشوبه شائبة التحيز إلى العناصر والأجناس. فموقعة بدر هي انتصار للروح على المادة، وانتصار للمثل الانسانية العليا على مُثل عبدة الأوثان. لقد كانت قريش تعتز بالأنساب، وتتفاخر بالألقاب، فلما وقعت بدر سقطت كلّ تلك المبادىء السخيفة وسقط معها عالم من الظلم والعسف، وقام مقامه عالم لا يرى العبادة إلا لله وحده، ولا يرى العظمة والتمجيد إلا له. فالله أكبر من كل كبير، وما عداه باطل وتضليل، والبشر كلهم سواسية، لا فضل لعجمي على عربي إلاّ بالتقوى .. فالإنسان أخو الانسان أحب أم كره. وكلكم لآدم وآدم من تراب.

أذكروا - أيها الشباب ! - ما وقع في بدر من الأعاجيب وقولوا هل يمكن أن تقع كل الأعاجيب لولا قوة الايمان التي تدفعها قوة روحية تعصف بكل ما يعترضها في سبيل تحقيق أهدافها عصفا، وتدك كل ما أعدّ مشركو قريش من عتاد، وما رصدوا من قوة مادية غاشمة.

أذكروا ما قال المقداد بن عمر - رضي الله عنه - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر:

«والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه».

واذكروا ما قال سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم بدر: «والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحـــد».

نعم اذكروا ذلك واذكروا أيضا أن لنا ـ نحن أبناء القرن الرابع عشر الهجري ـ بدرا أخرى يجب أن ننتصر فيهـــا.

يجب أن ننتصر في هذا العصر المادي على قوى الشر التي تسيّر العالم إلى الوراء لأنها تقدر كل شيء بقيمته المادية البحتـــــة.

يجب أن ننتصر على جميع المبادئ الوضعية التي لا تقيم للمعنويات وزنا، وتسخر بمن يحاول أن يزن الأشياء بميزان القيم الروحية.

يجب أن ننتصر على هذه المادية الخبيثة التي تحاول أن ترجع نظام الطبقات البغيض إلى الوجود بعد أن قضى عليه الاسلام في بدر. ذلك النظام الذي يشطر المجتمع شطرين: شطر السادة أو ما يسمى في ذلك العصر بالأشراف الذين لهم كل الامتيازات والطيّبات والمنـــافع والمتع، وشطر المستعبدين الذين عليهم الكدّ والتعب، ولهم الهوان والحرمان.

يجب علينا أن ننتصر على عبادة العصر الحاضر، عبادة الأصفر الرنان الذي أصبح أصحابه قادرين على شراء الجاه متى شاءوا، واكتساب الشرف متى أرادوا على حساب الشعب العامل المسكين.

لنعلّم الشعب أن الشرف يقتنى بالأعمال الصالحة لا بالدرهم والدينار، وأن الجاه لا يناله الا من أخلص عمله لله ولرسوله وللوطن.

أيها المسلمون لكي تحافظـــوا على انتصار أجدادكم ببدر، ولكي تكونوا أهلا لحمل أمانة القرآن الكريم يجب أن تحاربوا كلّ مادية ترجع إلى عصور الظلمة والجاهلية، وتشبثوا بكل ما في الاســـــلام من مبادئ سامية، وقيم روحية خالدة، فإنه لا نجاة لكم إلا بذلك.

إلى الشباب المسلم

«قيلت في ضريح أبي زمعة البلوي ليلة المولد»

أيها الشباب المسلم.هل تريد أن أقدم إليك نصيحة ثمينة ، وأطلعك على سر عظيم من أسرار النجاح في الحياة ؟. عليك بالسيرة النبوية فهي مدرسة الرجولة والبطولة والعظمـة .

إن في السيرة النبوية لمواقف وأعمالا وكلمات تبعث في النفس الروعة والجمـال، وتتناهى في السمو والكمال.

فعليك أيهـا الشبـاب المسلم ، أن تعبّ من ينبوعها الذي لا يغيض ، وتستضيء بنورها الذي لايخبو، وتستوحي من سموها وعظمتها جميع أعمالك التي لها شأن في حياتك أو في حياة أمتك .

اقرأ - أيها الشباب المسلم ! السيرة النبوية فهي التي تنقلك من عصرك السخيف المادي المملـوء بالسفاسف والحقارات إلى عصر البطولة والرجولة ، عصر الإيمان الصادق، والأعمال الجليلة ، والرجال العظام ، عصر الروح التي تعصف بكل مـزيف، وتحطم كل صنم، وتسيطر على كل شيء، وتحيل كل ما يحتك بها من الحوادث والوقائع ، إلى أعاجيب من أعاجيب الانسانية الكاملة والسمو الذي لا يُسامى .

هل تريد - أيها الشباب ! - أن أذكر لك بعضا من هاته المواقف.

استمع إذن الى ما أنقل لك منها على سبيل المثـال :

الموقف الاول

جاءت قريش إلى أبي طالب للمرة الثانية وقالوا له : يا أبا طالب ، إن

لك سنّا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنّا. وإنا - والله! - لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنّا، أو نحاربكما في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. وانصرفوا عنه.

فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسا بتسليم رسول الله فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمّه خاذله و مسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه فقال عليه السلام:

«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته». ثم استعبر رسول الله فبكى.

إن هاته الكلمة التي قالها الرسول صلى الله عليه وسلم قد وقف الدهر عن دورانه ليسمعها. وهي التي حولت مجرى التاريخ إلى وجهة جديدة.

فتعلم - أيها الشباب المسلم! - أن تقول: لا. إذا وجب أن تقولها، وأن تتحمل ما يترتب على قولها من النتائج والتبعات التي لها شأن في سير حياتك، أو علاقة بوجهتك وواجباتك.

الموقف الثاني

في غزوة أحد، تلك الغزوة التي كانت يوم ابتلاء وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين وأظهر فيه المنافقين ممن كان يظهر الاسلام بلسانه وهو مستخف بالكفر، تلك الغزوة التي كان شعار المسلمين فيها «أمت - أمت» تلك الغزوة التي كان أنس بن النضر - رضي الله عنه - يقول فيها: إني لأجد ريح الجنة من دون أحد، والتي - لما قتل فيها - وجد بجثمانه سبعون ضربة، قلت في تلك الغزوة التي كسرت فيها رباعيتا الرسول - صلى الله

عليه وسلم ــ وشُجّ في رأسه حتى كان يسلت الدم عنه، قال له بعض أصحابه، وقد شق عليهم ما رأوا : لو دعوت عليهم، فقال عليه السلام : لم أبعث لعّانا ولكني بُعثت داعيا ورحمــة ؛ اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمــون.

اللهم اهد قومي فإنهم لايعملون. هكذا يجب أن تقول ــ أيها الشباب ! ــ إذا أوذيت في سبيل الله، أو في سبيل الدعوة إلى مقصد شريف أو مبدإ كريم. يجب أن لا يعرف الحقد وحبّ الانتقام إلى نفسك سبيلا ما دمت تؤمن بأنك على حقّ، وأنك مخلص في ما تقوم به من عمل . فلقد شرع لك رسولك ــ صلوات الله عليه ــ القاعدة، وأراك كيف ترتفع بالنفس البشرية التي يجذبها ضعفها في مثل هذه المواقف إلى الاستكانة واليأس، أو إضمار العداوة وإيصال الأذى لمن يخالفها في المبدإ، أو لا يعلم ما تعلم من خطورة الرسالة التي يجب عليك أن تقوم بها لإصلاح أمتك وإرشادها.

الموقف الثالث

في غزوة حنين، كان السّبي الذي وقع بأيدي المسلمين ستة آلاف رأس، وكانت الغنائم أربعا وعشرين ألفا من الإبل، وأكثر من ألف شاة من الغنم وأربعة آلاف أوقية من الذهب. فقسمها رسول الله وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس : أبو سفيان أربعون أوقية ومئة من الإبل، وفعل كذلك بابنـــيه معاوية ويزيد، وهكذا وزعت تلك الغنائم في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء.

فوجد الأنصار في أنفسهم، وأكثروا من التذمر حتى قال أحدهم : لقي والله رسول الله قومه ــ وصنع في ذلك حسان بن ثابت شعرا قال فيه :

علام تدعى سُلَيْمٌ وهي نـــازحـــة قدّام قوم هم آووا وهم نصروا

وأخيرا دخل زعيم الأنصار سعد بن عبادة على النبيء صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ! إن هذا الحي من الأنصار قد وجـدوا عليك في أنفسهم

لما صنعت في هذا الفيء الذي قسمت في قومك. قال عليه السلام : وما هو رأيك في ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي ـ قال فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة. فأتاهم رسول الله وخطب فيهم هاته الخطبة :

يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم ـ واجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلاَّلا فهداكم الله بي: وعالة فأغناكم بي: وأعداء فألّف الله بين قلوبكم.

قالوا : الله ورسوله أمنٌ وأفضل.

ثم قال : ألا تجيبونني؟ أما والله لو شئتم لقلتم ، أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك ، وعائلا فواسيناك . أوجدتم علي يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتم إلى إسلامكم . ألا ترضون ـ يا معشر الأنصار ـ أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم. فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا.

فتعلم ـ أيها الشباب ! ـ كيف تبكي إذا وصلت إلى قلبك الموعظة ، وكيف تحتقر حطام الدنيا إلى جانب القيم الروحية الخالدة فترضى بها أنت أيضا قسما وحظا.

* * *

والآن هل تريد ـ أيها الشباب ! ـ أن أذكر لك أمثلة من التأثير الذي يبعثه الإيمان في القلب ، وتتغلب به الروح على المادة ، اذا وجدت القلوب والأرواح من يحرك فيها نارها المقدسة.

الموقف الاول

في موقعة بدر ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعدِّل صفوف أصحابه وفي يده قدح يعدِّل به القوم . فمر برجل يقال له سواد بن غزيّة وهو متقدم من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح وقال : استو يا سوّاد.

فقال : يا رسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدْني (أي اقتص لي من نفسك) فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال : استَقِدْ (أي اقتص مني) . فاعتنقه سواد وقبل بطنه فقال عليه السلام : ما حملك على هذا يا سواد؟ قال : يا رسول الله أردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك .

فانظروا - أيها المسلمون - كيف انحصرت رغبة هذا الرجل الذاهب إلى الموت في أن يلمس جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقولوا هل هناك أروع وأجل من هذه البطولة، بل هل هناك أعظم وأتم من هذا الحب وهذا الإيمان .

الموقف الثاني

قدم على رسول الله بعد أحد جماعة من قبيلتي عضل والقارة فقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الاسلام . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ستة نفر من أصحابه فيهم خُبيب بن عدي . فلما وصلوا إلى الرجيع غدروا بهم ، فاستصرخوا عليهم هذيلا ، وفهم الأنفار الستة أنهم يريدون أن يأسروهم ويبيعوهم إلى قريش فيشتريهم من كان له ثأر عند المسلمين . وكانت خاتمة خبيب أن وقع في يد جرجير بن أبي إهاب وقدّمه للقتل أخذا بثأر أبيه . فلما جاءوا به إلى مكان يقال له « التنعيم » ليصلبوه قال لهم إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا . قالوا : دونك فاركع ركعتين . فركع حتى أتمهما وأحسنهما . ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة ثم أنشد :

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الاله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ

واسمعوا هاته الأبيات التي قالهـا عبد الله بن رواحة، وهو ذاهب إلى غزوة مؤته، وفيها يتمنى الموت لتكتب له الشهادة :

... لكنني أسأل الرحمان مغفـرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهـــزة بحربة تنفذ الأحشـاء والكبـدا
حتى يقال إذا مروا على جدثـــي أرشده الله من غاز – وقد رشـدا

تلك أمثلة قليلة من المواقف الكثيرة التي تجدها، أيها الشباب، في السيرة النبوية، تلك المواقف التي تتجلى فيها عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعظمة أصحابه المقتبسة عنه، والموجهة بإيحائـه وتوجيهه، والتي جعلت من العرب أمة كان لها من السمو بقدر ما كانت عليه من الانحطاط والخمول والتدابر . فسوف تفيض على نفسك الشابة من فيضها ما يكون له أثر عظيم في توجيه حياتك، وتحقيق آمالك، وآمال أمتك فيـك.

الفهرس

طبع بمصنع الكتاب
الشركة التونسية للتوزيع
5 ، شارع قرطاج ـ تونس
الطبعة الأولى جويلية 77
76 — 24 — 402

الشركــة التــونسيــة للتــوزيع
5 شــارع قــرطــاج ـ تــونس